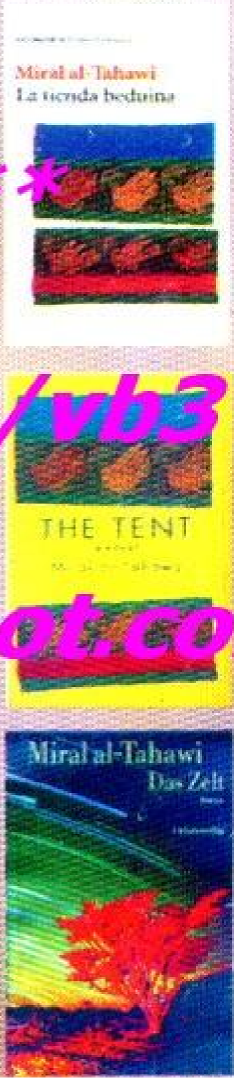
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

ميرال الطحاوى

الخباء

الأعمال الإبداعية





صور لبعض نماذج أغلفة رواية الخباء التى ترجمت … الكثير من اللغات

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الخبـــاء

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : أهلاً وسهلاً
التقنية : ألوان زيتية على توال
المقاس: ٤٠ × ٧٥ سم

يوسف فونسيس (١٩٣٤ـ ٢٠٠١)

فنان تشكيلى مصرى، وكاتب سيناريو، وناقد فنى، ومخرج سينمائى، .. تخرج فى كلية الفنون الجميلة ١٩٥٧ (قسم التصوير) ، ودرس فى مرسم الأقصر لمدة عامين، وعمل بمؤسسة روز اليوسف، ومجلة صباح الخير، ومؤسسة الأهرام، وهو رسام صحفى مرهف الحس، ذو طابع رومانسى يمتزج فى كثير من الأحيان بالطابع السريالى، أقام وشارك فى العديد من المعارض المحلية والعالمية، وله مقتنيات فى متحف الفن الحديث بالقاهرة، وكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية.

محمود الهندى

الخبـــاء

مـــيرال الطحـــاوى

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الخبراء

ميرال الطحاوى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

وحَطّيتك على بابهمُ غفَير

وين يا حجر بيت غاليين*«1»

إلى جسدي . . وتدُ خيمةٍ مصلوبةٍ في العراء

كلما أغمضت عيني وجدتهم ، كلما أسلمت خصلات شعري «لسردوب» بيدها الحانية تحركوا أمام مقلتي بهدوء ، كأني أقفز السور العالي ، وأعبر فضاء البيوت والجدران الطينية الواسعة ، وأخرج من دوار إلى دوار ، ثم أصل إلى المنحدر فأجد العشب والجبل والتلال الخفيضة ، وأراقب «موحة» وهي تسرح بأغنامها وأركب حمار السرب وأظل أركض في الصحراء حتى أرى النخلات السبع . هنا واحة «مسلّم» و«زهوة» و«سقيمة» والعبد الصغير .

*

أنظر من تحت الكلّة ، يبدو السقف بعيداً ، أنظر لوجه «صافية» الناعس في هدوء ، مشرقة كقمر ، وطرف ساقها الذي انكشف شديد البياض والامتلاء ، حتى خداها لم تفارقهما الحمرة الطافرة . فكرت أن أحتضنها . كانت نسخة من أمي بهيئة أضخم وأكثر إشراقًا ، أو ربما كانت أمي مثلها ثم انطفأت . تأملت وجهها ثم انسحبت . أعجبتني

فكرة تأمل الوجوه الناعسة ، وكان الأرق كثيراً ما يضجرني . رفعت الكلّة المواجهة ، وشممت رائحتهما : «فوز» و«ريحانة» . . . كانتا متعانقتين كمَن يحكيان سرّاً . واغتظت منهما ، حتى في نومهما يتناجيان دوني . جذبت عليهما الغطاء ثانيّة وجلستُ في بسطة الحجرة بين الفراشين .

عاودتني فكرة الهرب ، وكانت ثلاث نوافذ صيفية ضخمة مفتوحة ، كل واحدة تكاد تصل السقف . أبواب ضخمة ، لكنها مرشوقة بالأعمدة الحديدية المتداخلة فلا يعبر فيها إلا البعوض الذي يطنُّ بشراهة ، ولا تخرج منها إلا الأنفاس المتوترة .

تَسَحَّبْتُ من الباب الموارب ، ربما أستطيع فتح مزلاجه ، لكن الفكرة أقلقتني ، كان أضخم من أن أتصور فتحه . تَسَحَّبْتُ ، وعدت ، لكن في طريق عودتي تعثرتُ بجسد «سردوب» المسجَّى على السجادة في الرواق الكبير ، «ساسا» منكمشة في أحضانها ، اختبأ جسداهما تحت الطاولة الضخمة التي يعلوها موقد الضوء الخافت . جذبتُ «ساسا» برفق فأبعدتُها قليلاً ، ثم دسستُ جسدي في حضن «سردوب» . تحسستُ ذراعها ووضعتُ رأسي عليه . كانت أنفاسها دافئةً رتيبةً ، وكفها يمسِّد خصلات شعري ، وعيناها ما زالتا مغمضتين ، لكنها طبطبت بكفِّها على ظهري ، فبدأ النعاس يهبط .

*

الصباح ككل الصباحات ، أجد نفسي على الوسادة بينما «صافية»

تفكُّ جدائلي بعنفٍ وتسحبني إلى المياه رغم صراخي وهي تقذف بشتائمها .

ــ «نامي مثل الكلاب في أي مطرح . العبي مع «ساسا» ونامي مع «سردوب» يا جروة» .

تدفع برأسي في وعاء الغسيل وتصبُّ الماء على جذور شعري ، الذي طالما عذَّبني طوله بين يديها ، تلفُّ أعوامي الخمسة في الغطاء ، وتدفع بي ، تضفر الخصلات ، وتقصُّ أظافري أحياناً ، وتزجِّج عينيَّ المحمرتين بالكحل الحجري .

الصباح مثل كل الصباحات السابقة ، مليء بالتوتر والقلق ، أفهم ذلك حين لا تفتح أمي باب حجرتها ، أو حين تفتحه لتنظر محدقةً فينا بعينين جزعتين . كان نحولها ووهنها ،صورتها والعروق الدقيقة فوق جفنيها وأنفها المتورم من فصد الدموع تملأ قلبي بالاختناق .

الصباح مثل كل الصباحات التي عرفتها ، أجلس على فروة «سردوب» بين المطبخ وحجرات الكرار ، و«فوز» و«ريحانة» تتناجيان على فراشهما ، وتحكيان ، وتضحكان ، ثم تعاودان فرد قصاصات الأثواب والمفارش وإبر الغزل ، وباب أمي مغلق ، تفتحه «صافية» ببطء ، تحمل لها إبريقًا نحاسيّاً وإناء صغيراً ، وتتبعها «ساسا» بطاولة مغطاة ، ثم تقرب لها وعاء الماء لتدلك لها قدميها .

أتسحَّبُ إليها فأرى الوهن يدبُّ في العينين الشاردتين . أقترب ، فتلمس وجودي ، تدفع كَفَّيها حول وجهي وتنخرط في البكاء .

أهرب من الغرفة المعتَّقة برائحة الدموع .

*

أدسُّ رأسي في حجر «سردوب» وتبدأ في فك الخصلات ؛ فيهبط السكون ، ويهبط «مسلّم» ويعبر الوهدة القريبة . طويلاً ، نحيلاً ، تعاريج العمر أخاديد فوق الوجنتين المشدودتين بنبل ، والكفّان المعروقتان تُسنّان الصخور الصماء المدببة .

تفرش «سقيمة» جذعها وتنصب ممخضتها بين عزقتين ، ويبرق وجهها بلون رطب . خَمَشَ رج اللبن المخضوض فضاء الصمت . أسندت «زهوة» جذعها إلى النخلة القريبة لتتابع أشعة الشمس الغاربة ، فتضمخ خدها بلهيبٍ فاتنٍ يشقُّ بياضها بعذوبةٍ مبهرةٍ . .

أقتربُ منها :

ـ «لماذا أنت حزينة يا «زهوة»؟»

أقتربُ ولا تسمعني ، تشرد ببصرها بعيداً ثم تخطُّ بأصبعها على الرمال جذوعًا مصلوبة تتأوّه ، أتابع نقوشها بدهشة ، أناولها الحصوات الصخرية المدببة وأعقاب التمر ، تخطُّ رسومها ، تخطُّ ولا تكلمني ، تقف بعد أن تملّ ، تفرد قامتها والليل يهبط ، وتسير فلا يبقى على الأرض أثر لخفها ، وحواشي ثوبها تطمس الأرض وتترك الخواء .

تفكُّ «سردوب» خيوط شعري الملقى على حجرها ، ورأسي يدور باحثاً عن مخرج .

*

أسمع أزيز الباب الكبير فأهبُّ واقفة ، وأركضُ إلى بسطة البيت

حيث تتدحرج السلمات وأقف ، أراهم يركضون في اتجاه مغلاق الباب ، يتشعلق «الخادم» ليشدَّ القضيب الخشبي :

«هل جاء؟»

إنه ليس موعد القطيع ، الشمس لا تزال في الأفق . . هذا الباب لا يُفتح إلا مرتين ، واحدة في أول النهار قبل طلوعها وأخرى بعد غروبها . أجلس على حافة الدرج فتسرح الخيل ثم الماشية ، لا تبقى في الدَوَّار إلا «خيرة» ، إنها صغيرةٌ بعد ، «مُهْرَة عنيدة» ، هكذا كانت تقول سردوب حين تطعمها . تصهل ولا تكفُّ عن الصهيل إلا وقطعة السكر تذوب في فمها ، كنت أتمنى أن تصبح خالصة البياض ، لكن هذا العرف الأسود والذيل الأكثر سواداً بدوا لي مزعجين ، ماذا لو قصصهما؟

«يكسر رقبتك» .

وهل يجيء ليرى شيئًا؟ إنه لا يرجع إلا ليرحل ، ولا يرحل إلا ليغيب ، فهل جاء؟ ! هل ستصهل فرسه السوداء التي يحب أن تبقى بلا اسم . يفتح الباب الكبير ، تركض الفرس في الممشى . . لقد عاد . . . هل أركض في اتجاهه؟

ـ «أهلا يا غزالة أبيك» !

عقاله الذي يطوق رأسه ، وعمامته المنسدلة على الجانبيين . وجهه ، أنفه الطويل ، لحيته . . . «لم تغيرك سفرتك» ، أنظرُ إليه .

ـ «فاطمة . . . فاطمة يا صغيرة أبيك هل أغضبك أحد؟ !»

«مـزاجـه تلك المـرة رائق ، قَبَّلني كـثيـراً وحـملني ودخل . إنهم بانتـظاره . تقـدّمـت «صـافـيـة» فَـقَـبَّلتْ يده ، وتبـعـتـهـا «فـوز» ثم «ريحانة» . . أحنين رؤوسهن بانكسار .

ــ «لماذا لا تقبلهم؟ !»

ــ «يا فاطمة كبرن ، حينما كُنَّ صغاراً كنت أحملهنَّ على كتفي مثلك» .

ــ «لا أريد أن أكبر يا أمه سردوب . . لا أريد أن أكبر» .

تُمَسِّدُ خصلات شعري وتحكي :

. . «الشـمس تدور في السـماء وتتـدوَّر ، الشـمس بنت مـثل كل البنات لها سبعة وجوه ، ثم ليل طويل تدفن فيه وجهها الأخير العجوز المندوب ، تنوح ، ثم تهرب وراء جبال الغياهب ، جبال الحديد والنار ، بيننا وبينهم سدَّان وبئر من الحديد المصهور تسقط فيه الشموس» .

ــ «مَن؟ !» . «مَن يا أمه سردوب !» .

ــ «الفراعين وعبيد نمنم واليأجوج؟ !»

سمع أزيز الباب ثانيةً . تخرج منه «ساسا» إلى الدوَّار المقابل . . المَضْيَفَة ، مَبْرَك الجمال . أعود إليه فلا أجده ، فقط ينطلق من غرفتها النشيج ، يبكيها حضوره . . . «لماذا لا تحبه مثلي ولماذا لا تغادر الغرفة المظلمة؟»

حين أجابت «فوز» عن سؤالي . . «مجنونة» ، لطمتها «صافية»

على وجهها بحدَّة ، فكفَّتْ «فوز» عن رفع وجهها في وجه «صافية» لأيام طويلة ، بعد ذلك سمعتُها «منها !» .

«هي» الآن تدخل ، يفتحون لمقدمها أيضًا الباب الكبير ، ويقف الجميع بانتظارها ، نُحيفة ، أخف منه ، فمها تبرق فيه الأسنان المذهبة فيصبح مثل فم الغولة ، ثوبها أزرق داكن لا يتغير ، فقط تُغيِّر العباءة التي ترتديها من دون سائر النسوة ، وهل هي نسوة؟ إنها أمنا جميعًا ، أمنا الغولة الكبيرة المتلَّفعة بتلافيع الرجال ، تنخز فرسها العجوز الضخمة ، وخلفها حمار بخرجين يسحبه العبد ، ويتبعهما صبيَّان يحرثان بأقدامهما المفلطحة في الرمل . يقف الجميع دون مدخلها ، تنخز الفرس فتتقدم في اتجاهنا ، ويدلدل الحمار أذنيه ويبقى بقية الركب خارج بابنا ، ربما يقفون هناك بالدوار المقابل حيث ينتصب بيت الشَّعر . تهرول «صافية» أولاً لتقبِّل يدها ، يتبعها أفراد البيت ، تُمَرِّر يدها السوداء المعروقة بكبرياء عليهم ، عيناها تتحسَّسان كل ما حولها ، تدفع قدمها في النعل وتلملم عباءتها وتدخل ، وحين تخلع العباءة فإن الثوب الأزرق يبرق بالذهب ، الحزام أو «الحياصة» ــ كما تسميها ــ تطوق وسطها ، مليئة بالدوائر الذهبية والعملات الثقيلة ، تنحني مع الظهر المقوّس قليلاً وتشدُّ كميها الواسعين لتبرز بين عروقها السود صفوف «النبايل» والأساور من كلتا اليدين ، وحتى دون أن تخلع مداسها فإن الخلخال الذهبي يبدو قميئًا وسط العراقيب النحيلة ، والبروز في كواحلها .

أرقبها من بعيد ، لا أحبها ، فإن عصاها التي تنخز بها الفرس سوف تدفسها في كل شيء ، في صوان إخوتي ، في دواليب الكرار ، في جرار السمن والجبن ، فضلاً عن مخابىء الخزين ، وعريشة الطيور ، وستعد بَيْضَ البط الذي فقس ، والحمام الذي زغب ، وستفتح كل صوامع الغلال لتتأكد من أنه لم يصبه السوس ، ولم تمد النسوة أيديهن إليه ، تسبقها خطوات «صافية» الوجلة وهي تتلقى الأوامر .

ــ «الغرف ناقصة نظافة» ! «الفول للعليق» . . «الحمام ، لا تذبحي منه فردة . . البناني لا تكفي لقنص أبيكَ . . . إن احتاج فأعطيه الزغاليل الصغيرة» . . . . .

تعود ، لتفترش صدر المجلس على المقعد المبطن وتربع ساقيها وتبدأ في لفّ التبغ في الورق الشفاف ، وحين يأتي فلن تكفَّ عن فرك الدخان وستلمع عيناها الضيقتان الصغيرتان بمكر وهي تسأله عن رحلته ومرعاه . ويجلس بين يديها ضئيلا . كأنني لم أر صدره المليء بالعظَمة قبل ذلك ، وكأني لم أره يمشي والكل يركض من رهبته . يفتح أمامها الصندوق .

ــ «ماذا جلبت»؟ !

تعبث بيدها في قطع الصابون المربعة بلا رائحة وتقلّب في قطع الأقمشة . تفور قهوته ، وتصبّ الصبية النحيلة «ساسا» في فنجانها ثم فنجانه ، تزعق بصوتها الخشن :

«يا بنت انت وهي . . يا خلفة السوء . . تعالي» !

تتقدم منها صافية . تكمل بنفس لهجتها المستاءة بلا مناسبة :

«والله خلفتكم حرام . . الله ابتلاه وهو صابر» .

تنظر إليه ، ولا يبدو عليه شيء من الاكتراث ، تقذف في حجر كل واحدة قطعة وثوبًا وأحيانًا زجاجة من زيت الزيتون الأخضر تبرق فيه الأعشاب ، تكوّم نصيب أمي في جهة وتقول وهي تسلط عينيها الحادتين على «صافية» :

ــ «هذا للممسوسة . . والله حرام فيها الزاد جلابة الخلفة الحرام» .

تركض «فوز» و«ريحانة» في اتجاه غرفتهما ، لا يشغلهما شيئاً مما قالت ، تقولان عليها «الجدة الهبلة» ولا تكترثان إلا بطبعة الثوب ، أو سواده ، أو صباغته الحلبية المشرقة . غداً ستبدآن في القص والتطريز ، صندوق غرفتهما مليء بالأثواب والمفارش . تركن «صافية» حصتها بلا خياطة ، تحمل معها نصيب أمي ونصيبي وتركنهما في الصوان الكبير ، وستبدو أكثر حزنًا واستسلامًا ، وسوف تبدأ في البرطمة إذا أوت لفراشها :

«الله ياخذك ما توعي بليل ولا نهار . . والله ما ممسوس غيرك يا غراب الشوم . . أربع صبايا وثلاثة رجال . . ماذا تفعل؟ ! . . ماذا تفعل في إرادة الله وعيونك المسمومة؟ ! . . والله ما حسدهم غيرك يا غراب الشوم» .

أسألها .

ـ هل كانوا ثلاثة؟ ! فلا تجيب .

ـ أين ذهبوا؟ !

تعطيني ظهرها وتبدأ في النشيج .

ـ «رحلوا . . رحلوا» .

ـ «وهل سيعودون مثله . .؟ !»

ـ «رحلوا لربهم» .

ـ «ولن يعودوا أبداً؟» «ولماذا لا تذهب الجدة حاكمة إلى ربها ولا تعود؟ !» .

ـ «تكسر رقبتك» .

وحتى لو لم تسمعني فإنها ستكسر رقبتي يوما ما .

قلبي يمتلىء بالمخاوف من أسنانها الذهبية الشرسة التي تلاحقني في المنامات فأركض ثم أسقط في بئر بلا قرار وأظل أشعر بالهبوط وجسدي يهوي بحدة في البئر .

*

يمد «مُسلَّم» دلوه فأتشعلق بحكايا سردوب ، يسكب دلوه أمام مشرب «مُهْريه» ، يمرون عليه فيخفيها كما يُخفي الفراعين كنوزهم في كهوف الَجبال ويَنحتون حولها أوثان السحرة . يمرون عليه فتصهل خيولهم مهتاجة من ثقل الأسلاب . يستظلون بنخلاته ويعبق الجو برائحة الشواء واللبن المخضخض والقهوة ، يملأون جربهم من البئر ويرتحلون ، يخلعون ألثمهم ويقهقهون بالحكايا ، لا يحبهم ولا

يكرهم . ينثرون بين فتات الوليمة أمجادهم ، يحكون عن الصوب والعربان وحروب القبائل ، يسألونه عن المطر ، والغزلان ، ويتندرون على العسكر في الوادي وأفاعيلهم الشنيعة . يتلفت أحدهم إلى كرمشات الجلد المتهدل في وجه مسلّم ويسأله :

ــ «منذ متى وأنت مطرَّق يا شيخ العربان؟ !»

يهز مسلم رأسه ويلَقي بكف يده إلى الوراء فيفهم الحضور أنه منذ زمن فات حصره ، قليل الكلام ، ساكن ، لا يصلهم منه حل أو ربط .

ــ من أية قبيلة أنت؟ !

يعبث بلحيته ولا يرد ، فيتبارون في خط السيجة ، ويبحثون تحت النخلات السبع عن أعقاب التمر ، وهو يشعل النار تلو النار ، والقهوة خلف القهوة :

ــ مشرقي أم مغربي؟ !

كلما مروا يسألون ولا يجيب ، وحين تروق غزالته يهنهن وتبرق النجوم لأهازيجه ، يتفرسون في الأرض ويقهقهون .

ــ عندك صبية؟ !

عن هذا لسؤال فقط يرد :

ــ عندي امرأتي ، خفيفة مثل الغزلان .

يتفرسون أكثر في الأثر . .

ــ إنها كاعب حسناء . . !

ــ لا يزال فيها بعض الرمق ، يشبه السراب .

يضحكون وتلبد «زهوة» وسط شقوق البيت المتسع الذي تضيف له «سقيمة» كل عام خبأ جديداً من فتل الصوف وغزله ، ترمقهم بعينيها المائجتين بالحيرة . . يملأون جرابهم من البئر ويرتحلون ، يودعهم كما يستقبلهم ، بتحفظ ، ثم يسكب بقايا قهوتهم على بقايا النيران المشتعلة . تلك المرة تركوا له «صقرة» قالوا سقطت في «ملفافهم» ، عجوز دقوا لها أمام البيت وتدًا ، وظلت في طرف الخيط تتلوى . حين خرجت لها «زهوة» ، ورأت الجفنين صكهماالخيط ، والجناحين معقوفين باللجام المعقود فوق ظهرها ، نظرت له وصمتت .

قلتُ :

ـ «نفكها؟ !»

لم تجب ، حاولتُ الاقتراب ، قالت «سقيمة» :

ـ «طيرة جارحة» .

لكني لم أرها جارحة ، كانت فرخة برية عجوزاً ، مكبلة ومغلولة وعمياء . . . اقتربت أكثر ، كنت فقط أريد أن أجذب خيط جفنيها لأرى مقلتيها ، لكن «زهوة» أمسكت يدي ، قالت :

ـ «لو رأت السماء ستجنُّ . . دعيها» . وكان «مُسلم» سارحًا وهي تنظر له . والليل حين يسقط لا أجد إلا حجر «سردوب» تضع رأسي وتحكي :

« . . سبع بنات يا نعش ، سبع بنات والصحراء صحرة ديابة

والأرض فضاحة كيف تمحو أثر نعالهن ، والعذرا حملت وليدها وهربت في السماء بعد أن ركلوها بالحجارة» .

*

الليل يطنُّ بعوضه من فوق الكلة المنشورة على الأعمدة الأربعة المنسدلة من كل جانب . . ، يطن فأجلس على حافة النافذة التي تتوسط الحجرة ، أجلس على سياجها الذي يسع جسدي ، أدفع بوعاء القلل الفخارية بعيداً ، وأتكوم جانبه ، أرى صوامع الخزين في مواجهتي تتراص بجانب السور العالي ، حتى الأمطار حين تهبط فإنها لا تهدمه ، إنها فقط تسيِّل الطين الأسود على بياض الجدران ، تسيل وتهبط مثل أخاديد شجرة توت عتيقة . الصوامع ، طينية ومخرمة ، والأرض فراغ . لا شيء في الدوار الواسع إلا شجرة الجميز عند حجرة الطيور ، وفي الجانب الآخر مرابط ومذاود الماشية والخيل ، السور كله مرابط ، ثم «عريشة» صغيرة تلبد تحتها الأغنام ، فإذا تركت المرابط فستوغل وسط حشائش وأشواك تخرج من الأرض ، وتموت دون أن يهتم بها أحد ولا يجرؤ على التوغل في خراباتها الشوكية ، لكنها كذلك محاطة بهذا السور الذي يصبح عندها أسود بلا طلاء .

في الجهة الأخرى يقف باب البيت الضخم الذي يسع قافلة جمال كاملة ، لا يستطيع فرد ــ مهما كانت قوته ــ زحزحته بمفرده ، يشد أحد «الخدم» المغلاق ويجذبه آخر من الخلف ويشد ثالث الحبل ، لكن الباب الصغير ، الذي يتوسطه كنافذة في جدار ، مزلاجه عال ،

وخفيف ، تجذبه «ساسا» فتدخل وتخرج ، والجدار المحيط به كان بلا غرسة واحدة حتى وقت قريب كما تقول «صافية» ثم جاء أبي بتلك الغرسات التي سرعان ما كبرت ، وكان يسميها «بوسيانس» وتسميها «سردوب» «ساسابان» .

قالوا إنه أول من جلبها لكني رأيتها بعد ذلك في بيت «آن» أو المدام ، كما كانوا يطلقون عليها ، وكان بيت المدام هو قصتي التي سأحكيها لكل من أقابل من البشر ، تسمعها «صافية» بلا مبالاة ، وتضحك «سردوب» وتدهش «فوز» و«ريحانة» كأني أتلو عليهما تعاويذ مسحورة ، بعد ذلك زرعوا أشجار المستكة والليمون في آخر الدوار ، لكنها كانت بعيدة جداً وتفصل بينها وبين الحوش الأشواك البرية التي كنت أخافها ، فاكتفيت بتسلق أشجار «الساسابان» . تقول «سردوب» :

ــ «مثل السعادين» .

وتقول «صافية» :

ــ «ستكسر رقبتك» .

وأظل أتسلق حين يغيب أو يخرج للقنص فأرى من خلف الفروع واجهة البيت ، الدوار المقابل ، مبرك الجمال ، والمضيفة بجدرانها الطينية التي أكلها الدخان ، فصارت مثل قصعة الرماد ، يطوقها سياج من الخشب ينزل من السقف بأعمدة تتلاقى مع سياج مماثل قرب الأرض ، كانت المضيفة جميلة لولا الرماد الذي أكل الخشب

لصارت مثل مركبة ضخمة ، بجانبها يُنصب بيت «الشَّعْر» حين يجيء ، ويفرشون حوله البسط العجمية الحمراء ، وفي الجانب المقابل كانت أشجار الساسابان تطل على الفضاء والأرض التمرية ، ومن بعيد كانت أحواض الزرع تكسو الأرض كلها . . وكان الفلاحون هناك ، أحياناً أسمعهم يغنون وأحياناً يتمخطرون بأثوابهم الزاهية .

ومن بعيد كانت الشمس تقترب من قمم الجبال الخفيضة ، فتعكس الكثبان الرملية أشعتها المبهرة ، كنت قد وجدت أخيراً شيئًا أفعله ، أنزل من أعطاف الشجرة إلى حجر «سردوب» المطوية ، أضع رأسي قليلاً لأغفو ، أشعر بأني أسقط في بئر بلا قرار وأظل أهوي .

أسمع صوتهما وأنا نصف ناعسة ، أهب . . «موحة» «ساسا» الخادمتين أرمقهما ، وهما تتناجيان وظهرهما مسنود إلى خزانة من القبب الطينية ، أقترب ، ما زالتا تتناجيان ، تفتل «موحة» في حجرها كومة من الصوف الداكن وتعبث «ساسا» بقصاصات الأثواب التي جمعتها من مخلفات الخياطة . . «موحة . . ماذا تفعلين؟ !»

لا ترد . . تبتسم بوجهها الأحمر وعينيها الضيقتين اللامعتين بخبث شديد ، تقضم شفتها السفلى فيبدو عليها أثر السنَّتين الكبيرتين من أثر القضم وتلحسها بلسانها ، أجلس جانبها ، فتقول «ساسا» ، وقد أخرجت مشطها . .

ــ «لن أعطيها لك إلا بعد أن أرى» .

لا ترد «موحة» ، تلمظ شفتيها وتبتسم . تفك «ساسا» جدائلها وتغمسها في الدلو ثم تمشط ، أتكوم وحول وجهي كفاي ، ماذا يفعلان؟ ! تقترب «موحة» ، تغمس يديها في الماء وتضفر واحدة اثنتين ، ثلاثًا ، خمس جدائل ، تشد بقسوة الشعر القصير الملبد وتضفر ، ثم تخرج فتيلها الداكن وتواصل ، تبتسم بخبث وتلحس شفتيها القانيتين ، وتصبح جزة الليف ضفيرة طويلة . . داكنة ، ممتدة ، فتنتقل إلى الشطر الآخر ، تضحك «ساسا» وهي تمسك ضفيرتها بفرح ، وحين تنتهي تركض بقدميها في اتجاه «سردوب» ، تجذب ضفيرتها أمامها وتعود مثلما ذهبت راكضة ، وتلملم موحة القصاصات الملونة ، تلفها حول إصبعها ثم تدس في «قنعتها» اتي تتدلى من خلف رأسها وتضحك ، بالضحكة نفسها وتعانقها «ساسا» وهي ترشها بالماء ، ويعلو صراخهما . .

ـــ «موحة . . أين تذهبين؟ ! العبي معي» .

تنظر لي بلا مبالاة وتتركني وتمضي . تخرج وأركض تجاه الشجرة أتسلق ، أرمقها تخرج من «قُنْعَتَها» القصاصات ومن حولها تتجمع الصغيرات ، تفرد الشرائط ثم تخبئها ، وتركب حمارها ، تجلس بنصف جانب ، وتدس قصاصاتها في الخُرْج ، وتصفر ، والصغيرات يدفعن القطيع ويهمهمن بالمغاني ، التي تألفها الصحراء والقطعان ، وتحفظها «ساسا» من صداقتها لتلك الغجرية الحمراء التي تسرح في الفيافي . . تبتعد «موحة» تصبح نقطة بعيدة ، وأنا أقفز من شجرة إلى

شجرة ، ثوبها معقود ، وسروالها متسخ بروث الماعز ، ورائحة اللبن المخضوض بعقد كهرمان و«نبيلة» فضية تحاور معصمها ، وحين تحكي ، يموج اللبن الحليب في وجهها بحمرة شفقية ،وتتسع وشمتها ، ويسيل كحل العينين البارقتين بجزل الأعرابيات ، . . . «كان فيه ملك وملكة ، كان فيه صبية وولد ، كان فيه جَمَّال يسرح في أرض الله الواسعة . . .» «موحة لماذا تشردين؟» تتسمع الخبط الخفيض الذي يأتيها من هناك . . . ووه ووووه . . «موحة ما هذا؟» . . . . «كان فيه ذئب يعوي في الصحارى وكان فيه نجم مكتوب عليه السهر» تسكب على وجهها الغطاء وتهرب . . . . والعقد الكهرمان يتدلى بين جديلتين ، تفركه فيتضوع بلون الشمس ، ويستدير مع حبتها . «موحة لماذا تشردين؟» «الجبل عال ، والشمس عالية ، والنجم عال ، والعصفور له جناحان» «موحة أهرب معك؟» . . . . نهربُ ، وهناك على كومة رمل وربوة معطرة بعشب كليل تسرح ، والخيام منضودة في الساحة ، لها قمم خفيضة تترنح في عصف الريح ، تجري وراءها الصغيرات ، يتعثرن بأقدامهن المفلطحة في الأرض وراء ظهرها ينثني الغطاء المقوس ، يتدلى خلف رأسها بجيب كالجراب ، تلقي فيه مغزلها وخيوط الصوف المفتولة ، وتمرات وأعقاب دخان منتهية ، تجري موحة ، ترفع ذيل ثوبها المزركش ، تضعه في حافة نطاقها الأحمر الذي تتحزَّم به ، وتجري منى في الأرض المنبسطة خلف سرب الماعز ، وتجري

حولها الصغيرات وهن يلتففن حول القطيع من كل الجهات ، وحمار السرب يتدلى بخرجيه بطيئًا يتتبع السباق . الرمل لامنته ، مخضب بلون الشمس الفتية ، والوجوه تتشرب لون الذهب المَسكوب في السماء والأرض ، يجرين ، يلاحقن العقارب الصفر في جحورها ، يقصمن ذيولها فيسيل السم على الرمل ، ويضحكن وهن يطاردن السحالي ، وتلتقط إحداهن من الوهدة ثعبانًا مرقَّشًا تدعك فمه في التراب ثم تخرج إبرتها ، وتخيط فمه ثم تتركه يتلوى ، في الرمال ، «موحة أتعبني اللهث وراءك ! حتى متى تشردين؟» تضحك ، ولا تلتفت لي ، تضحك والليل يرمي أسماله على الأرض ، وفوق أكوام القش والخيام الملفعة بالخرق يبدأن الغزل والهمهمة . والنيران تدفع اللون الشمسي نفسه ما بين القبب ، والصبايا يتابعنها ، يتحلقن حولها . تدفع لإحداهن بقرش نحاسي فتستدير لها بالمخيط وترفع ذقنها باتجاه النار وترشق بسنها اللحم ، توخذه بسرعة ويندفع الدم ، من الشقوق يندفع وهن يصفقن تصفيقهن الرتيب وتزداد الهمهمات . .

(بوشمة خضرة رشرشها شافها نور العين أدهشها . . . . . بوشمة خضرة رشرشها شافها نور العين دهشتها هووه هووووه)*(٢)

والدم يسيل ويرش أسفل ذقنها ، وأنا مربوطة في ساق الفراش الخشبي ، أتلوى من الضيق ، وأنبح بالدموع كجرو موحة الذي كان

يتلحس قدميها ، وهي تفرك أعقاب السجائر وتلفها وينطلق الدخان من خياشيمها فتبرق العصفورة الموشومة على ذقنها ، وتهز جناحيها ، وتهرب مع الدخان المتصاعد . أجر قدمي وأعود .

*

«صافية» من غرفة الكرار حتى باحة البيت تدوّي كالنحلة ، و«فوز» و«ريحانة» تتناجيان وتتابعان تطريز القماش ، لو أعرف فقط ماذا تقولان ، كنت حكيته «لموحة» حتى تلعب معي ، وتعرف أنني أجيد الحكي .

وحين لا أجد ما أفعله ، أجلس جانب «سردوب» ، رائحة الخبز تعفر جوعي .

«اخبز لك حنُّون؟ !» . . .

تسألني ، تبطط «سردوب» الخبز ثم تلقي به على النار الخابية ، تفتّ الخبز في اللبن ، أحمله وأمضي ، أفتح بابها ببطء :

ــ «نائمة؟» «ناعسة ، ناعسة يا أمي؟ !» لا تجيب ، أقفز جانبها . ينسكب قليلاً ، أُربّع ساقي واللبن يواصل انسكابه . أُربّع ساقي وأبدأ الأكل ، ترفع وجهها إليَّ .

«هل أنت ناعسة يا أمّي؟ !» لا تجيب ، أرى عينيها المتقرحتين تحدقان فيَّ «لماذا تبكين؟» يتحول بكاؤها إلى نشيج فأنزل مثلما صعدت وأغلق الباب ورائي .

أجلس في مقدمة البيت ، أسند ظهري للسلمة الطينية ، في

مواجهتي الباب الكبير الضخم عال ، وفوق سقفه ثلاثة أكوام طينية واطئة ، مغروس في كل ربوة منها علم يرف ، ألقم فتيت الخبز الكلب «عساف» يروح ويجيء ، يقف أمامي فأرمي له كسرة ، يروح ويجيء ثم ينبش بساقيه تحت عقب الباب بشراسة ، «هل أنت أيضاً تود الخروج يا عساف؟ ! هل تريد أن تركض في الحقول ، وتقطف الحشائش مثل «ساسا» أو تركض في الوهدة مثل «موحة؟ ! ينبش ويعود إليّ ، يهز ذيله فأمسِّد بكفي على رأسه وألقمه كل الخبز . .

لِفّوا البَكرج على اليمين وصبّوا ضيوفٍ وطنيّة

وخلّيه ما بيني وبينك لطلوع النّجمة البحرية . «٣»

حين تبدأ الشمس الاختباء أشعر بالتعاسة ، تضيء «صافية» غرف البيت بسراج خافت ، أتسلق حديد النافذة حتى أصل للشبح ، أتطلع للسماء هادئة ومقمرة ، والليل خافت . توارب «صافية» باب أمي ، تروح وتجيء ، وتنظر من ورب الباب على جسدها في العتمة ، وهو ساكن في الفراش . أقلب وجهي في السماء ، لا شيء غير السور العالي من كل الجهات ، وخزائن الغلال ربوات طينية تجاور السور ، قبب ، كبيرة وصغيرة ، صوامع ، وبرج حمام يستطيل قليلاً لكنه لا يبلغ ارتفاع السور ، «كيف يمكن تسلقه؟ !» أرمق الفضاء والتراب والسكون وأهبط .

«سردوب» تجر فرشتها ، وتجلس هناك في شرفة البيت . في الليل فقط يمكنهم أن يتسحبوا بجانبها ويجلسوا ، رغم أن الباب مغلق والسور عال ، في الظلام يمكنهن أن يحكين وهي تهمهم لهن بالمغاني ، وتحكي لي الحواديت ، تتناجى «فوز» و«ريحانة» ،

ويضحكان ، وستحكي «ساسا» عن السوق ، وبنات العزبة ، من تزوجت ، ومن أنجبت ، ومن مشت على حَلٍّ شَعْرها ، وستقطع «صافية» صوت الحكاية وهي تشوِّح :

ــ «كفاية . . كفاية يا بنت لو سمعتك ستعقفك في مربط الخيل»

وسوف يقاطعنها :

«غارت . . غارت في داهية ما الذي يخيفك؟ !» وسوف تكمل «سردوب» مغانيها ويضحكن في وجل :

ــ «عقلي في توصيفك حاير يا توصيف الطير الطاير . . يابو وجه كما البنورة . . بدي نحكي لك على الساير واللي في الدنيا مذكور . . نحكي ع اللي كان رأيته غالي عندي كان شهيته ، يا توصيف أحسنها صورة» .

بعدها سوف أضع رأسي على ساقها المطوية ، وتمسح يدها الدافئة خصلات شعري وتحكي :

ــ «كان «نعش» يحب بناته لدرجة الجنون ، كن سبعة أقمار في سماء سوداء ، وقد هربت العذرا من المحراب ، حملت وليدها والصحراء صحرة ديابة» .

أغمض عيني لكن النعاس لا يهبط ، بل يهبط الأرق ، من تحت الكلة ، أراقب النافذة المفتوحة وفوقها يجثم الشبح ، رسم بالجير لرأس مستدير وكفين طويلتين تحتضنان مفرق النافذة وتحاصران جسدي ، كنت في البداية أخاف . أخاف العتمة والصمت والسحالي

التي أراها في النهار خلف الصوامع ، تتلمظ بشره وتختبىء في الشقوق ، وأخاف نباح «عساف» وعواءه وأخاف نقيق الضفادع الذي كان يأتي من بعيد ، من الأرض المزروعة خلف البيت ، ولكن الأرق يأكل المخاوف ، والنوم مليء بالكوابيس ، والعتمة وشاح .

أتَسَحَّب تلك المرة لا لأندسَّ في أحضان «سردوب» بل لأخرج ، والباب المغلق في وجهي والصوامع في الجانب الآخر ، والخواء والسكون يحيطان بالمكان كله .

أنظر للسماء ، أجلس على السلمة ، يسقط الندى وتهبط «العذراء» واجفة تومض وتجفل ، يتبعها وليدها النجم الصغير ، يقتربان ، ثم يخفتان ، ويبرق «سُهيَل» في مداره البعيد ، أسمع قططًا تموء ، و«عساف» ينبح بشدة ، أعود ، أغلق الباب برفق ، أقترب من غرفتها ، ساكنة أم عامرة بالنشيج؟ ! تبكي ، حتى في العتمة تبكي؟ ! لا ليل ولا نهار ، عتمة ونشيج ثم سكون مطلق . أعود إلى الكلة ، أتابع أنفاس «صافية» الرتيبة ووجها الممتلىء المستدير بطيبة .

ــ في الصباح أفتح عينيّ و«صافية» تُعدِّد مطالب السوق ، وتتحرك أذن «ساسا» بخرزتها الخضراء علامة على الفهم ، تكرر «صافية» الطلبات نفسها فأشاركها : السكر النبات ، وحلاوة شعر البنات ، تدس في جيبها القرش وأظل أنظر إليها وهي تمتطي البغلة ، وتنفض الخُرْجَيْن وتبحث عن عصا قصيرة تنخزها بها ثم تركب ويتدلى ساقاها بالبنطال ذي الكرانيش من تحت الثوب المشمور ذي

النقوش الزاهية ، ثم تجذب ضفيرتيها المفتولتين من صوف «موحة» ، واحدة عن يمينها والأخرى عن يسارها تتوسطهما العصابة ، يسحبها أحد الغفر ببلاهة ، أكرر طلباتي «السكر النبات وحلاوة شعر البنات» فتجيب :

ــ «حاضر ، حاضر يا بنت سيدي» .

تفتح فمها بضحكة ليس لها معنى ، ثم تفتح الباب الصغير الضيق لتقفز البغلة وعليها «ساسا» تتأرجح ، أتبعها من شجرة إلى شجرة ، أرمقها وهي تهز الضفيرتين وتضحك منتشية ، فأمقت السور والحجرات والباب ذا المغاليق .

ــ «عساف» يطارد القطة التي تتلفت حول غرف الكرار ، يلهث وراءها وهي تنظر من غصن إلى غصن وتخرج بين نباحه ومواثها ، ينبش تحت عقب الباب « . . إلى متى ستظل تنبش؟ !» ينبش قليلاً ثم يدخل رأسه ويحني ظهره ويخرج ، . . ينبح بالخارج نبحتين ويعود من الجحر بنفسه . . «ها قد أفلحت أخيراً في الفكاك» . . أهبط بسرعة ، أمد رأسي ، ما زالت الحفرة ضيقة ، أمد ساقي ، لا أستطيع . أنبش بأظافري وأحني قدمي ، لا شيء غير خدوش ساقي وصراخ «صافية» .

ــ «والله لأقول لها . . وستعرف كيف تؤدبك» .

أخرج لها لساني وأمضي .

أتسلق الشجرة من جديد ، أنظر بالضفة الأخرى ، العبد يسحب

فرستها ، الغلامان يجران الحمار ، يسقط قلبي ، تجري «سردوب» و«أم ساسا» ليسحبا مغلاق الباب ، يسقط رأسي أيضًا ، أتشعلق في الفرع المقابل ، لا فائدة ، الأرض من كل الجهات . أفيق ، وساقي المتورمة أمام «سردوب» ، وهي تغمس أصابعها في الزيت ، وتدلّك ، واللعنات تهبط من كل الجهات .

ـ «قلت له بيت بلا رجل كواحة بلا بئر» . . «ملعونة يا خلفة السوء» «دعيها تنكسر رقبتها على صدرها . دعيها تغور في داهية . .» «فقط يفلح في شرح صدري بالبلايا والرزايا التي ينجبها» ، تقاطعها سردوب «صغيرة يا ست . . صغيرة» تجذب اللفائف وتغمسها في العجين حتى تتماسك ثم تلفها حول ساقي ، تلف ، والدنيا تدور من حولي . وأسنانها التي تبرق تبتعد وتقترب وقلبي يرف من التعب ، تنقذني «صافية» تحملني بين ذراعيها وتضعني في الفراش ، أسمع لعناتها تخفت قليلاً ، أنتظر رحيلها ، لكنها لا ترحل ، بل تدس منخارها في كل الخزائن والصناديق ، وتتقدم نحو حاجيات «صافية» :

ـ «هذه الثياب لماذا لا تخاط ، هل نجلبها لنرميها هكذا؟ !» .

تلقي بها على الأرض ، يصبح الليل والنهار أتعس من ذي قبل ، أجرر قدمي وأزحف ، في النهار أجد باب البيت على وسعه ، أزحف بمواجهته ، الآن أرى كل شيء بوضوح ، بوابة مقابلة أكثر أتساعًا ، وشوارب تروح وتجيء بين العالمين المتواجهين ، غرف طينية مسقوفة تفوح منها رائحة الدخان ، «متى يجيء من سفرته؟ !» .

أسمع نقر قدميها ، أزحف في اتجاه مخالف ، تروح تفتح غرفته ، وحدها تجرؤ على ذلك حتى في غيابه ، تستلقي على فراشه ، تخلع عباءتها الرجالية وحزامها الذهب ، تصبح أخف ، لكنها أكثر عجزاً وتحولّا ، وسوف تتصدر المجلس في شرفة البيت المستطيلة بسورها الخشبي ، تسحب لها «ساسا» الوسائد ، تسند ظهرها وتتكىء على الأخرى ، والباب الكبير يدفع بجمال تكسر في الصوامع ، ويعبىء الغلال صف من البنات الصغيرات ، تنتقل باتجاههن وتزفر . .

ـــ «اللعنة على وجوه من أنجبكنَّ ، فلاحات نجسات ، قليلات الحياء» .

تزعق وتنادي «يا نجاسة لمّي يدك» . . «يا نجاسة اتعدلي لاعدل رقبتك تحت نعلي» .

يعبثن في الأجولة وأنا أحبو من نافذة إلى نافذة ، لا أستطيع القفز ولا التشعلق ، أجر قدمي وأعود إلى ضلفة الباب الموارية ، أصبح قرب مجلسها لكنها لا تراني .

تقترب الوجوه ، ويميل الجسد الرخو ، ينحني قليلاً حتى يضع الشارب الكثيف الحمل فوق الرأس .

«والفجر لاح يا قلة النوم يا آنا» .

يرددون وشارب آخر يحني الرأس قليلاً وتنسكب الغلال في الفم المفتوح للأجولة ، يتبادلون الضحكات المكتومة والتنهيدات .

ـ «والفجر لاح يا قلة النوم يا آنا» .

تبصق على الأرض وتعاود :

ـ «يا نجاسة ، يا دود الأرض متى تغسلن وجوهكن في ماء الحياء» ، «سارعي يا خليعة لاخلع نعلي في ضبك المفتوح» .

يضحكن بخفوت ، لماذا لا يخفن منها؟ !

يمتلىء حمل الجمل وتتكدس الأجولة بين الحبال المفتوحة في تشابك فينهض من بركته ، يعاودن التمايل حتى يجهز حمل جديد ، بعدها سيظل الباب مفتوحا ، وسيضم مجلسها كثيراً من العجائز .

العبيد يجرون ركائب الشمطاوات في تلافيعهن السود ، وحين يكشفن وجوههن ستبرق الأسنان المفضضة والوشم والعطور الثقيلة فوق أحزمة الذهب و«دملج» اليد الذي تكشف عنه فتحة الكم المتسع . تتوسط المجلس فوق مساندها وتضحك بغبطة .

«ما الذي يحدث بالضبط؟ ! لا أحد يعرف» ، يدخل الصائغ بعدستيه الثقيلتين تبرز من ورائهما حدقتان كليلتان وبنطال حضري وطربوش متسخ سيبدو مضحكاً بنحوله ، لكن حين يفتح جلبته ويخرج العملات المستديرة ، سبائك سبائك ويبدأ في دقها ، فلن ينظر أحد إليه ، تنادي «فوز» و«صافية» ، هكذا باسميهما دون لعنات أو وصفات مصاحبة ، «هل أصبحنا خلفة أخرى غير خلفة السوء التي ما زلت أنا و«ريحانة» ننتمي إليها؟ !»

تقيس وسط كل منهما بقطعة من القماش وتعطيها له ، فيخرج حزاماً من الجلد يقطعه بحسب وسط كل منهما ، ويبدأ في تعليق السبائك وفي المرة القادمة تصبح صفوف البرق منقوشة تتشعلق في العملات ، وسيفتح جلبة أخرى ليخرج الكرادين والأساور ، و«سردوب» تهلل في الليل .

ـ «يالبَّاس الدملج في إيده ، بوجِمَّة حلوة وإسوار ، بوجمة حلوة وسوار وأَسوار» .*«٤»

لماذا أنا و«ريحانة» لا؟ ! تقول «الحمولة خرجان ، خرجان في البضعة القادمة حين يصبح لك رسم . ووسط من صدر ، سندق لك الدهبات» .

وتضحك فتهتز «البرقة» المعلقة في منخارها ، لا أحفل كثيراً بما يجري ، المهم الباب بضلفتيه مفتوح والصائغ كل يوم يجلب جلبة جديدة ، والأكثر من ذلك أن فتيات العزبة التي أراهن من بعيد سوف يأتين يلقين ببطونهن المنتفخة فوق الفرش فيسقط القطن ويجلسن ، تشير بعصاها .

ـ «هناك . هناك . . بعيد يا نجاسة . . بعيد يا خليعة . . بعيد يا بعر المطايا» .

يذهبن ، تضحك النسوة المتلفعات بالسواد ، ويفتلن في الصوف بلعابهن ثلاثة أحمال . . حمل داكن ، وحمل أبيض ، وحمل مصبوغ ، خيوط ثم نجوم ومثلثات بحواف مدببّة . تنقع سردوب

الصوف وتغسل وتفك ثم تلفه ليغزلن . والقهوة تلو القهوة ، تفوح منها رائحة الحبهان المصحون في فناجين البيشة الخزفية الصغيرة .

*

أزحف من غرفة إلى أخرى وألواح الخشب المصقول بها قاع الحجرات تخربش في جلدي وتترك علاماتها .

يجيء يفرد عباءته ، فتركض الأرض إلى أحضانه ، أشهد الجمال وهي تعفر في ركبها وتبرك في مرابطها ، أرقبها من الباب المفتوح لأول مرة وأسمع وقع الخيل وهي تتمخطر ، والعبيد يجرون الأحمال ، يلقون بيت الشعر من على هامة المهري ، ويبدأون في دق الأوتاد . . بعد دقائق سيرتفع الخباء واسعًا مفتوحًا يسد الخلاء المواجه ، وسوف تمتلىء كل شقوقه بالضيوف ، والعبيد يروحون ويجيئون ، وسيجيء كثير من الفلاحين بجلابيبهم الكالحة وأقدامهم المفلطحة ، يجرون ويحنون رؤوسهم ثم يلمسون أطراف كفه ، وبانكسار محفوف بالدعوات سوف يقبلون ، وهو رافع رأسه لا يبالي لمقدمهم ، وحين تنتهي الضجة فسوف يدخل ويجرر العبيد وراءه المتاع المحمول . .

سيجدها تفترش موقعها في الشرفة وحولها التلافيع السود والخياشيم التي تبرق بالمعلقات الذهبية ، ينحني على ركبتيه ويقبل الأيدي المليئة بالتجاعيد . . . ، ومن خالة لعمة سوف يستمر

انحناؤه . يدخل فتهرول «صافية» أولا ، وأحبو بساقي الملفعة بالخرق ، فيحملني بين ساعديه .

ـ «يا غزالة أبيك . . ما بك . . فاطمة فاطمة يا صغيرة أبيك» .

تدخل بظهرها المقوس..

ـ «دع عنك خلفة الشؤم تتشعلق على الحوائط حتى أصبحت عرجاء . . بنصف قدم . . والله لأكسر ساقك الأخرى حتى تتعلمي الحياء يا ملعونة» .

ـ أُتهته «ساسا . . السوق . . الشجرة» .

يربت على وجهي :

ـ «فاطمة حبيبة أبيها لا تغضب جدتها أبدا . . فاطم أميرة . . هل تحبين أن تصبحي مثل أميرات الترك يا فاطم؟ ! تجرين ذيل ثوبك وينحني الناس للأميرة «فاطم» الجميلة ، وسوف يأتي ولي النعم نفسه ليخطبك وأطرده مثل كلب ، «فاطم» بنت الأكارم لا تتزوج من جركسي . . إنها مهرة عدنانية أصيلة . . أذهب يا تركي يا أحمر . . أليس كذلك يا أميرة أبيك؟» .

أتمسح في وجهه .

ـ «سأبقى معك ، لن أتزوج غيرك» .

يضحك من قلبه بفرح ، ثم يضعني ، يجلس ، يخلع عقاله فيبدو أصغر سنًا ، يرفع كوفيته البيضاء على رأسه .

جلس قبالها تفرك حبات مسبحتها وتسأل :

ـ شرقت أم غربت؟ !

ـ غربت .

ـ وكيف حال أولاد عمومتك . .؟ !

ـ قحط ، جفت مرابعهم والصيف قائظ ، نصف رعيهم هلك .

ـ هلكت العجائز؟ ! .

ـ بل المهاري الصغيرة .

ـ لا حول الله ، عوض الله علينا وعليهم . . وماذا فعلوا؟ !

ـ شرقوا في مراعي بني عونة ، أرض هيش ، وكلأ .

ـ سلم أم حرب؟ !

ـ سنة حتى ينقشع الجدب . تناوشوا قليلاً ثم اتفقوا ألا يحفروا بئراً ، أو يزرعوا نخلة ، عام وفي الثاني يحملون حمولهم .

ـ وضأنكَ .

ـ «المعازة» لا يهلكهم شيء .

ـ زرعك آن قطافه .

ـ آن حصاده !

ـ نضجت السنابل ، والفلاحون أنجاس يسرقون كحل عينك . وخلفة السوء التي ابتليتني بها جاءتها الأكفان وأنت هارب في الفجاج .

ـ ما زلن صغاراً .

ـ قيدها بقيد حديد وارميها في بيت سعيد .

ـ من جاءك؟ !

ـ عيلة «مجلي» ، «منازع» وولده «نايف» .

ـ لمن؟ ! «منازع» سقط سن فكه !

ـ أقبرهن قبل أن يقبرن سيرتك وفضائلك .

ـ صافية؟ !

ـ و«فوز» . . الولد وابوه .

ـ وهل أجبت سائلهم؟ !

ـ وهل يُرَد؟ ! . . قيدها بقيد حديد وأرميها في بيت سعيد ، والله بيت فيه كل هذه الرزايا بيت مشؤوم ، طير الطيرة الغبرة حتى يخلف الله عليك بالولد يا وليدي .

يسقط في الصمت ، يحتسي قهوته ببطء ثم يخرج وتعود هي للتلافيع السود ، يضحكن بأسنانهن المفضضة ويعاودن الغزل ، والفلاحات جلابيبهن الزاهية يعقدن الطرح السود على جباههن ومن فتحة الصدر تتمايل الضفائر . . يجذبن في خيوط القطن ، وتمر كل واحدة مشوحة بالبذور رؤوسهن ويضحكن ثم يعاودن الغناء :

ـ «نص الليالي وأنا ويا القمر ماشي
نص الليالي وأنا ويا القمر ماشي
هاتوا الدوايا والقلم واكتب على شاشي
مملوك صغير وخدَ العقل من راسي
نص الليالي وانا . . .»

يضحكن ، تتقارب رؤوسهن ويهمهمن ، فتخرج «سردوب» تتمايل بلحمها الذي يثقلها ، تعكز على عصاها وتهتف فيهن .

ــ «غني . . غني يا حلوة . . غني عقبال فرحكم» .

يتمايلن ، يبتهجن أكثر ، ينظرن بخبث ، حتى تركض الجدة بجسدها المحني النحيف بين أروقة البيت ، وتنخز منخازها في الأثواب وقطع الصابون والكحل الذي يصحن والخبز الذي يعجن ، وحين تختفي يعلو الإيقاع الرتيب .

ــ «الفجر لاح يا قلة النوم يا آنا

والفجر لاح يا قلة النوم يا آنا

ياللي ورا الباب يا ستي . . يا عروسة ردي عليا

ردت عليه ربع ردة . . . . واتميلت على المخدة

نزلت دموع المحبة . . .

تخرج إليهن بمشيتها العنيفة ، وجسدها المتخشب «أخرسي . . اخرسي يا خليعة» تركلهن بما تطوله يدها . . .

ــ «اخرجن يا بغايا يا قليلات الحياء . . فلاحات مفضوحات . . بلاستر . . بغايا» .

يقفن في حافة الباب المفتوح ، فتتعكز «سردوب» بجسدها الرخو :

ــ «يا ستنا معلش . . فرح . . فرَّح الله ديارك . .» ،

ــ «هذا كلام لا يقال إلا في زرائبهن . . المواشي ، البغايا» .

ــ «سيغنين أغنية أخرى . . . فرح . . فرَّح الله ديارك يا ستنا» .

تدير ظهرها وتدخل فتشير لهن سردوب بيدها وتضع إصبعها على فمها :

ــ «قلن كلاما مهذباً يا بنات . . والله لو سمعت كلامًا خائباً لتجلدكن . .»

يعاودن مزّ القطن ، يصمتن ولا يتبادلن حتى الابتسامات ، تخفض كل واحدة رأسها في حجرها وتصمت . فتعاود سردوب الخروج لهن .

ــ «غنوا ، غنوا . . ليه يا عصافيري بتنزلوا الغلة . .»

ــ تصفق على يديها لتشجعهن :

ــ «ليه يا عصافيري بتنزلوا الغلة» .

وتبات طول ليلي حيرآن.. وحظ افكاري مُختلفات

والعقل اصيبل روف عليه «٥»

ـ الليل يبتلع الضجيج والقمر سافر ، ونقيق الضفادع في الحقول المجاورة يخدش الصمت ، وساقي في اللفائف ، أزحف حتى السلمات الحجرية في مقدمة الدار فأسمع أنفاسها ، والباب يئز خلف خطواته التي تتجه نحو حجرتها ، أجر قدمي ، أسمع شخير «سردوب» من الطرف المعتم ، وأقترب من بابها ، لا أجرؤ على دفعه . . فقط أسمع تنهدات صوتها تفح بالدموع ، أعود لأحتضن وجه صافية ، الناعس ، الحالم بخفوت ، تؤنسني دقات قلبها وأنفاسها الرتيبة ، أملّ ، أعاود الزحف إلى بسطة الدار ، أسمع وقع قدمه يخرج من حجرتها بلا نعل ولا عقال ، أول مرة أرى رأسه المكشوف وجسده النحيل بلا عباءة ولا سروال ، أخفت أكثر ، يهرول ، يتلفت حوله يفتح الباب ، يئز ، أسمع مغلاق بابه وأسمع فحيحها الذي تحول إلى نشيج مضنٍ ، أعاود الزحف بساقي المدفونة باللفائف ، أزحف بعيداً وصوت نشيجها يطاردني .

قالت لي «ساسا» :

«إنه يخنقها» ، رأته يخنقها قبل ذلك ، كان يكفي جسده فوقها وتمتد يداه إلى عنقها تحل ضفيرتها النحيلة ويشحب وجهها أكثر وترتجف ، وتنطلق تلك التنهدات التي سمعتها وقد يجدون في الصباح إذا دخلت لها بالإبريق مع «صافية» الخطوط الداكنة حول رقبتها ، زرقاء مثل جفنيها المتورمين دائمًا بالعروق الدقيقة المعتمة ، وقد يشاهدون على ثوبها أو في فراشها بقعة دم متيبسة ، في البداية لم أكن أصدق «ساسا» مهما أكدت لي ، لم أفهم أبدًا لماذا يخنقها وهي وادعة وحزينة ولا تكف عن البكاء ، وهو حين يحتضنني يقول لي :

ــ «فاطم ، يا حبيبة أبيك . . لو كف الغبار لكانت صافية» .

ــ أحبه ، أحبه وأسأله : مَن «؟ !» فيقول :

ــ «السماء يا فاطم ، السماء» .

أحبه أكثر ، أحب صمته وشروده وأزحف ، ونشيجها يطاردني حتى الشرفة ، حتى السلمات ، والليل يخيفني ، لكن نشيجها أكثر «لماذا يخنقها؟ !» .

يلمحني «عساف» ويرخي جفنه ، أزحف ، «خيرة» في المربط ناعسة ، لو اقتربت ستصهل . أزحف ، أشعر أن الشوكَ والدم ربما تيبس على اللفائف . . . أزحف والقمر يحاول إكمال استدارته ، والبئر بمواجهتي ، مستديرة مثل حافة قمر مكتمل ومتسعة ، والسلمات الصخرية تستدير مع فجوتها والسواد يخبىء كل شيء ،

وقطرات مـاء قليلة تبـرق في قـاعـه ، أهبط ، أزحف من سلمـة إلى أخرى ، وضوء القمـر باهت وحـركة كـائنات دقيقة تزحف مثلي في الشقـوق ، تخمش سكـون الماء والضـوء الشـحيح ، يتـراقص فـوق حركة الماء ! .

ــ «زهوة زهوة . . . تعـالي» تجيء تسـحبني من كفـي في الوهدة البعيدة .

الشـمس حـارقة والغبـار خـانق وأنفـاسي انتزعـهـا من جـوفي بعناء وهي تضحك «زهوة . . . ما الذي يضحكك؟ !» تجلجل ضـحكتها أكثر وقدماي تغوصـان في الرمل الناعم بصعـوبة ، أنقلها وهي تنقر بساقيها في الـرمل وتعـدو بلا خوف ولا أثـر لقدمـهـا ، أركض خلفـهـا حتى تخفت الشمس قليًلا وأعراف النخل تلوح . . تقول :

ــ «وصلنا» .

سبع نخلات يحففن المكان من كل الجهات تتوسطها بئـر مثل بئر بيتنا مستديرة بسلالمها الحلزونية ، حتى النقوش التي على حـوافها ، حتى الشقوق تتماثل ، لكنَّها ممتلئة .

وكـان «مسلّم» يسند رأسـه على إحـدى النخـلات ورمـاد النيـران المنطفئة تجاوره ، ومـهـريه ناعس كـتلة صـغيرة من خلف النخـلات يمضغ في اشنات جبلية خضراء ، والريح تزوم و«سقيمة» تبطط الخبز وتطيبـه على الـرماد الخـابي ، جـذبت زهوة كـفي ، «تعـالي» فـجلسنا قبالها ، صـغيرة مثل طفلة فـاجأتهـا التجـاعيـد . . تحملق في وجـوهنا

بوجهها الأحمر والوشمات عصافير وورد وأسود تركض على معصميها، تبطط في الخبز، وتنفخ في الرماد، تبرق عيناها الضيقتان بحدقتين شديدتي الالتماع، أركض معها وقبال ممخضتها نجلس، الوعاء الفخاري معلق في الحبال بين عزقتين.

أراقب الصقرةَ الموتودةَ معقوفةَ الجناحين، يلقمها «مسلّم» طيرةً صغيرةً مذبوحةً، عيناها أصبحتا مفتوحتين، خرزات تلتمع بشرود، والجناحان معقوفان والسماء بعيدة. أشعر بالخوف، لكن «زهوة» تسحبني من كفي، لا أقاومها.. أسير كيفما سارت، «مسلّم» يخز في نباله ويتابع أرنبًا يقفز من بعيد والتجاعيد حول مقلتيه تتراكم، لا ينظر إلينا ثم يتابع الأرنب وهو يتقافز في الوهدة، يشد في النبال ولا يسدد ويخز في الحصى المدبب ولا يصوب، تلحس فيه أكثر:

ـ «يا مُسلّم احكي يا مسلم.. هاجر زهوتك منذ ليالٍ طويلة».

يحكي:

ـ «الجمَال بعدما كلّت من شوك الصحارى، لفظت حدباتها وكرهت الخف والخطمة وحرنت ثم زعقت بخوار كالفحيح ولم يستطع أحد أن يوقف جنونها...».

يعيدها حتى نَمَلّ ويطاردني النعاس، يصبح وجه «زهوة» بعيدًا وصوت «مُسلّم» صدى والريح تزوم مثل طنين نحلة في أذني، والضوء حين يسقط في فجوة البئر ينقل دبيب خطاهم تجاهي.

ـ «فاطم . . فاطم» «أين ذهبت خلفة السوء ، يا نارك يا عارك يا بني من خلفة الرزايا» .

ـ «فاطم . . . فطوم . . أين تختبئين؟ قدمك يا فاطم ما زالت جريحة . . من أغضبك يا ست الصبايا» ، صوت «سردوب» يحنو ويخفت ، والطنين ينقل رأسي الناعس ، «بنت يا فاطمة . . ماذا تفعلين يا ملعونة . . تنامين في البئر؟ !» . . «عرجاء وممسوسة يا ويلك يا وليدي من خلفة العار» «عرجاء ممسوسة . تعكز في الليالي وتفتح باب دارها وتبيت في الشقوق المسكونة يا حفيظ يا رب» صوت الجدة «حاكمة» مصحوب دائماً بالدعوات على خلفة الشؤم ، أوّل مرة أسمع هذه الدعوة «يا حفيظ يا رب» ، أخيراً سيخيفها شيء ، أفتح عينيَّ المحمرتين من نعاس قلق وأصوبهما تجاهها بجسارة . . تتراجع إلى الخلف قليلاً :

ـ «مالك يا بنية . . يا حفيظ يا ستار يا رب» .

أدعك عيني فتزداد حمرة وأرقًا ولا أرد ، أستمتع فقط بحوقلتها وخطوها المتراجع :

ـ «مسوها . . مسوها . . يا حفيظ يا رب» .

تتراجع بخطوها وتمضي نصف راكضة فأدفن رأسي في حِجْرِ «سردوب» :

ـ «كنت مع «زهوة» يا أمه سردوب» .

كنت مع «زهوة» تربت بيدها الدافئة وتفك ضفيرتي ، وأصابعها تتخلل الخصلات بحنو :

ـ «نامي يا فطوم نامي . . شـغلتني سـردوب عليك . . نامي يا فطوم . . هوه هوه» .

صافية تروح وتجيء ، وتذوِّب السكر في الماء وترش :

ـ «قل أعوذ برب الفلق . . . زهوة من هذه يا سردوب . . غزالتها التي مـاتت؟ !» تـرش المـاء وتتـمتـم . «يا ناري عليـا يا نـاري . . لمن أتركـهم يا رب . . لمن يا جدة؟ الصـغيـرة والكبيرة ما يعلم بحـالهم إلا الله وأنتم من صحن الكحل لدق الدهبات» .

تبكي أكثر ويهتز «الشناف» المعلق في الأنف الدقيق ، وتجذب من خياشيمها البكا . . . والقمر كلما استدار زادت الضجة وزاد النشيج .

الشمس ما علمتني... والقمر جاحد

باهتة رغم كل الأساطير عنها ، لم أحبها ، ولم أكرهها ، فقط تعلقت بها لأنها كانت النافذة الوحيدة . منذ وقعت عيناها على العرف الأسود في البياض الصافي وهي تصيح بهذه الكلمة «بيوتي فل» .

قال أبي :

ـ «إنها مهرة فاطم حبيبة أبيها . . لا . . لا أستطيع . . اختاري ما شئت دونها» ، فتشعلقت بعنق «خيرة» الذي انحنى عليّ وهي تمد عرفها وتتلحسني وأنا في الأرض أحبو ، قلت :

ـ «خيرة مهرتي» .

فابتسمتْ والتفتت إلى ساقي واللفائف ، اكتشفت وجودي أخيراً رغم أنها دخلت كل الغرف ، وجالت حول كل شيء بهاتين العينين الزرقاوين الحادتين وأخرجت من حقيبتها عقدين من اللؤلؤ الأبيض وضحكت وهي تلثغ «اللعروسة . . الحلوة . .» وبدت لكنتها

مضحكة فأخفت «سردوب» وجهها . أغلقت «صافية» الباب على أمي ونظرت باتجاهها نظرة حازمة فلم تقترح أن تراها ، انحنت عليّ وكشفت بأصابع نحيلة وخشنة عن جرحي . . ثم تأوهت صارخة :

ــ «لا لا يا شيخ العرب . . تحتاج علاجًا . . ساقها موجوعة . . موجوعة» .

قالت موجوعة بفصاحة غير متوقعة فضحكتُ ورنَّت ضحكتي في الفضاء ، وجذبْت طرف ضفيرتي قائلة :

ــ «أرسلها لي . . سأداويها» .

ــ ثم التفتت إليّ «ها . . يا صغيرة ألا تهدين لي مهرتك الجميلة لأدريها» !

ــ قلت بتحدٍّ «لا . . إنها مهرتي» .

فأعجبه عنادي وضحك من قلبه وهو يكمل :

ــ «فاطم يا صغيرةَ أبيك أنا لا أستطيع أن أغضبك» .

والتفتَ لها وأكمل : «فاطم ستصبح أميرة . . أميرة مثل الجراكسة الحمر . إنها عدنانية أصيلة ، أليست أحق منهن وهي بنت الأجاود» .

هزت رأسها كناية عن فهمها لدواعي حماسه ، لإمارتي وربما لم تكن تفهم أكثر من أنها أرادت أن تحوز على شيء من نسل هذه السلالة «محجل» كما تقول . . . «مهرة محجلة أصيلة» تمسك خياشيمها وتراقب فقرات ظهرها وتعدّها وتتفقد ساقيها ثم تمسح عرقها بإعجاب فأرمقها بتحدٍّ أكثر ، وعناد أكثر «خيرة مهرتي» .

في البداية كنت أناديها بالخواجاية ثم قالت لي «آن ، قولي آن» وعرفت بيتها ، ظل هو المكان الوحيد الذي يفتح لي الباب لأقصده ، يسحب مهرتي «الغفير» وتتبعه «ساسا» وأنا أتأرجح فوق ظهرها . كلما حدقت فيها أدركت أنها غير جميلة ، رغم بياضها وعينيها الزرقاوين وشعورها الصفر ، لكنها غير جميلة . كلما اقتربت اكتشفت أن الجسد الأبيض مليء بالبقع والندوب ، خاصة فتحة صدرها الملتهبة كبقعة دم ، وستبدو عيناها الزرقاوان بلا ألق ولا حياة ، فقط تعبير واحد شبيه بسكون عنكبوت يقرفص بانتظار فريسة ما ، ولقد وقعت عيناها على «خيرة» أولاً وصار من الصعب أن أصرفها عن ولعها بها ، ثم تابعتني عيناها ، حتى وسط ضجيج العرس ، تفارق الضجة وتحط عيناها فوق وجهي ، إذا ضحكت ابتسمت ، وإذا دفنت رأسي في حجر «سردوب» سألتها عني ، وإذا هممتُ سارحة في ملوكتي ، طاردتني نظراتها ، فهربت أكثر باتجاه «زهوة» ، لكن «زهوة» هربت مني ، وبعدها كانت : «خيرة» وتلقيحها وتمرينها والسبق ، ثم أخيراً كان تعليمي ، لأصبح لائقة بلَقب أميرة الذي أُصرُّ عليه .

كانت «آن» نافذتي الوحيدة ، والبيت موحش ، و«زهوة» اختفت ، و«سردوب» تركت خصلات شعري ، وانتقلت إلى الغرفة البعيدة لترافق نشجيها الذي علا وصار صراخًا مسموعًا .

كانت ساقي ممدودة أمامها ، فَضَّت اللفافة ونظرت للجرح بتأفّف وقالت بضجر :

ــ «إنه يحتاج لتنظيف ، وساقك مكسورة أيضًا» .

نقعت جسدي كله الذي تعرى في الوعاء ، وضحكت «ساسا» ، كان نحيلاً وضفائري مغمورة في الماء ، قلت لها :

ــ «لو كانت البئر فيها ماء لنزلته . أوشك على النضوب ، و«زهوة» تسكن تحته ، إنها سفلية ، لو وصلت لقاع البئر وعبرت فسأجدها هناك» .

ضحكتْ .

*

كان الماء دافئًا وكانت «ساسا» ترش على وجهي الماء وأنا بينها وبين موحة ، وكانتا عاريتين ، الزغب الخفيف يغطي ، وتتكاثر اشناته بين فواصل الجسد ، أشرت بخوف وربما بدهشة :

«ما هذا؟ !» ضحكا ، فرفعتُ ثوبي ونظرت بين ساقي لم يكن ثمة شيء ، زغب ، ضحكنا أكثر وكنت أسمع ضحكاتهما وأنا أبتعد والضحك صار صراخًا ممزوجًا بالتأوهات والصخب ثم ، تفتل «موحة» بلعابها في الخيوط وتجذب في شعور «ساسا» القصيرة الملبدة فتصبح ضفيرتين أو عدة ضفائر متداخلة ، تبتسم بعينيها الضيقتين بخبث ولا تعبأ بوجودي أو ذهابي حتى وأنا أتشعلق بها .

ــ «خذيني معك إلى هناك . . ربما أجدها في الوهدة خلف الجبل» .

تدفعني بعنف .

ـ «إنها سفلية تسكن جوف الأرض . . ليس لدينا تلك الزهوة التي تتحدثين عنها» .

تُشَمِّر ثوبها ببنطالها ، تفوح منه رائحة البول والروث أو ماء راكد وتجذب نطاقها وتخرج .

و«ساسا» ترش جسدي فأضحك ، وتدخل «آن» حاملة لفائفها وتندهش أيضًا كأنها أكتشفت وجود شيء فيّ ، مثلما اكتشفته أمام عرف «خيرة» ، تلفني في المنشفة وتترك جسدي عارياً وهي تدهن الجرح بهذا الدهان الرطب الذي حوّل جرحي إلى كتلة نار مشتعلة ، وصرخت وبكيت ودفعتها بكفي ، كان جسدي نحيلاً جداً وصغيراً ، وكان يمكنها أن تحزم ذراعي بكفها فيسكن رغم انتفاضته ، وكانت أصابعها النحيلة تتحسسني وفي عينيها سكون العنكبوت ، تقلّص جسدي ، تقلص بصراخ أوقفها ، لكنها حتى بعد أن ارتديتُ ملابسي ، وشدَّت اللفائف بقسوة ، قرّبت وجهي ، وتأملته ثم اقتربت أكثر . . قالت :

ـ «وجهك جميل» وتحسست بأصابعها فلجة ذقني المنقوطة بوشمة صغيرة أو طابع الحسن كما كانت تسميه «سردوب» وابتسمتْ ، فهربتُ .

كان الغفير يقف و«ساسا» تتجول بين أركان البيت الغريب وأنا أزحف ليحملاني وهي تؤكد :

«يوم ويوم . . الجرح . . الغيار» كانت بعد ذلك تستهويها ضفائري ، تفكها وتمشطها «ذيل المهرة» ورغم كل تحذيرات «سردوب» لي بألاّ أقص عليها عن «زهوة» لكنني لم أبال .

ــ قلت لها إن أبي لا يصيد الأرانب ويحب الغزلان ، والغزلان حوريات سكنّ الأرض ، من أكل لحمها ظل يشتهيه ، ومن اشتهى لحمها طاردته اللعنة . . لعنة الصحراء ، الصحراء غادرة ومليئة بالجنيات .

أدور معها ، أعكز قليلاً ، صرت أعرف أسماء كل قططها الخمول فوق المقاعد والطاولات والأشياء وأرطن مثلما ترطن «كات» «دسك» أرددها فتصفق وتعلن في كل مرة له ذكائي وأحقيتي بأن أصبح أميرة . ينسى بعدها منخار جدتي الطويل وعصاها المعقوفة ، ينسى الباب ولعناتها وتحذيراتها بجلبة العار التي سيسفر عنها معرفتي للرّمح في الشوارع ، يبتسم لها ويقول :

ــ «فاطم أميرة سوف تعلمها الخوجاية لتصبح مثل أميرات الترك ، فاطم مهرة عدنانية أصيلة» .

ــ وتقول سردوب «صغيرة يا ستنا . . صغيرة» . تنخز بأصابعها في التراب وتهمهم .

«إن ما هابت السكك ، تشرد النعجة» .

لكنهم انشغلوا بعد ذلك بالقطيع عن النعجة ، وظللت أتردد كل عصر ، يسحبني أحد الغفر وتتبعني «ساسا» ولا يجرؤ أحد على

التطلع لي ، حتى العيال في الحواري الضيقة ، كانوا يكفون عن الضحك والصراخ ويسكنون حتى أعبر .

المدخل الطويل مغروس بأشجار الساسابان مثل بيتنا ، لكنها تقلمها وتنحر الأعراف المتشابكة لتصبح هضبات مخروطية متماثلة ، كلما تقدمنا في الممشى فسوف نشاهد أشجاراً لا حد لها ، حور ومستكة ، وكافور ، وأكاسيا ، وبان ، وتوتة عتيقة تحتها زير فخار يُنَقِّط في طست نحاس ، ومربط خيل تسميه «الاسطبل» تقضي فيه معظم يومها ، تغسل هذه ، وتطعم تلك ، وتروِّض هذا ، تقول إن «الخيل متعة» .

تقتني كل شيء ، سلاحف تحبو تحت صدفتها ، قنافذ الطين الشوكية ، ثعبان تسجنه في بلورة ، ضفادع غريبة الشكل ، هذا غير الغرف ذات الأسلاك المُخَرَّمة تحبس فيها طيور من كل شكل ولون وصوت ، طاووس ونعامة وحباري وحتى صقور جارحة لا تكمِّمها ، وفي آخر تلك الغرف كانت غزالة صغيرة . . أقول لها إنها تشبه «زهوة» .

كانت غزالتي «زهوة» جميلة جداً رغم أنها كانت متعبَة ، طاردها بالمصفَّحة ، طاردوها حتى تعبت ، اختبأت بين طيات الرمال ، كان أبي يريد أن يحضرها لي حيَّة لأربيها ، كانت صغيرة لكنها عفيَّة ، وإطلاق الصقور أو كلاب السلوقي يعني مماتها ، سيدفن الشاهين حوافره في رقبتها ويدفع منقاره كمدية في مقلتها بالضبط ، يقولون

«يُحلّلها» ، ويغتنمون لحمها ، حتى كلاب السلوقي رغم سرعتها ، لن تستطيع اللحاق بها ، لذا طاردوها بالمصفحة ، كادوا أن ييأسوا من اللحاق بها ، عبأوا «الخرطوش» لكنه رفض ، قال إنها هدية فاطم وظل يلاحقها حتى تعبت واستسلم جسدها للهاث في الأرض حملها من أطرافها الأربعة ، كانت خفيفَة مثل ريشة ، وعيناها مليئتان بالدموع ، ظلت أسبوعًا متعبة من الركض ، أُقرِّب لها الحشائش ، لا تأكل ، أقتسم معها سكر «خيرة» ، ترفض ، أتحسَّس جسدها الصغير فتنظر لي بشجن ، وحيدة يا زهوة يا غزالتي وحزينة ومتعبة ، كانت عيناها تطاردانني حتى وجهها كان يشبه «زهوة» مسلّم أو كأن روحًا واحدة تسكنهما ،

قلت لها ذلك . . عيناها لا تغمضان ولا تكفَّان عن سكب الدموع ، تترقرق ثم تسقط ، وقالت وهي تنخز بعصاها الجسد المرتجف :

ــ «اذبحها يا ولد . . أوشكت على الخلاص ، حلّلها ، حرام» .

فبكيتُ :

ــ «زهوة» غزالتي .

فأدارت عصاها إلى لحمى :

ــ «اسكتي يا معتوهة يا فال الشؤم . لا أريد أن أسمع صوتك» .

فسكتُّ ، لكنني لم أتوقف عن الانتحاب ، وجسد غزالتي يتعلق فوق الخازوق ويسلخه الخادم ويقطعه وتفوح رائحة الشواء .

ـ تقول ساخطة «أعوذ بالله لحمها أمرّ من الحنظل . . أعوذ بالله ، أعوذ بالله» . تقول «سردوب» :

ـ «مرارتها انفجرت من المطاردة» .

وتقول هي «بل نواح هذه المشؤومة . يا ستار يا رب من عينيك الجافتين يا خلفة الرزايا» . .

زهوة . يا زهوة رأسك تلمع فيه عيناك بتبتل واستعطاف ، رأسك فقط بقي لي ، لم تغمض عيناك أبدا حتى حين ألقته في البئر ، كانتا مفتوحتين بالنظرة الواجفة نفسها ، ينتفخ ، يتحلل ، يسرح فيه الدود ، تخرج من عينيك تلك الكائنات الشرهة تمتص من عينيك الألق وتتحولين إلى عظمة فارغة أرقبها في القاع الفارغ .

والله زمان ما قلت بوشان... ولا حام َطِير المنايا

والتقطعت روس فرسان... قُدام جَمل الصبايا».(٦)

سبع ليال مضت ، أصبح الهلال النحيل دائرة مشطورة ، نصفها تحت الحجب ونصفها هَلّ ، أعدوا الركائب ، حملتني «سردوب» فوق ساقيها ، كانت في المقدمة بعبد يجرّر ركوبتها ، ومن خلفها أنا و«ريحانة» و«ساسا» والخدم والغفر والنسوة المتلفعات بالبراقع السود ، عبرنا الأرض المزروعة ، وأطل ممشى طويل ، وأرض رملية منبسطة ، مشينا طويلاً ثم قابلنا مسقاة جديدة وأرضا نصف مزروعة ، حوافها بائرة ، فضاء مطلق ثم سور طيني طويل حوله بحيرة من الرمل الناعم .

غاصت الركائب فنخزها العبيد ، وصلنا البوابات المفتوحة ، عالية وفوقها قبب الطين مغروس فيها الأعلام ، شممنا رائحة مرابط الخيل ودبكة الأكف ، زغردت النسوة وجرى بركوبتنا العبيد ، والجدّة تصرخ .

ــ «ولد . ولد . . يا ولد . يا قليل الحياء ، هودٌ ، هودٌ يا وليد» .

الظلام تُبدِّدهُ النار المشتعلة في مضارب القهوة ، ورائحة الحبَّهان تعبق ، ومزيد من النسوة المتلفعات بالبراقع يدسسن وجوههن من بين شقوق الخيمة ويطلقن الزغاريد . انضممنا إليهن ، قبّلن يدها ، توسطت المجلس وابتسمت بحبور ، وكان موقد القهوة أمامها ، ومن خلف الشق كانت الصبايا يضحكن ، يفتحن أعينهن عن آخرها ويرمقن الصف الطويل المتراص من العمائم ، أجلس على الفرشة في شقها وأسمع الهمس الخفيض .

ـ «مازن» قمر ، صوته نحيب مثل ذئب يعوي» .

ـ «مالك ومال صوته ، الراجل طول وعرض» .

ـ «طلال أكثر ملاحة» .

ـ «ما لدى أبيه ولا أمه ما يقوتون به نملة» .

ـ «الرجل بعزمه» .

ـ «الرجل بماله ، وعبده ، وعزِّه» .

ـ «عدلان» مثل بغلة ترعى في أرض بائرة ، يخبط كفًا بكف ويهز رأسه وكأنه سبع الوهدة» .

ـ «أبيض وربعة» .

ـ «لا أحب هذا الصنف ، أبيض وأحمر مثل غوازي الغجر» .

ـ «أمه أصلها حلبية» . . «والله به وصمة الحلب» .

ـ «سابق» سبع .

ـ «قال على بنت «راتبة» .

ــ «متى تكلم؟ !» .

ــ «من يوم أن رنّت بخلخالها وهو يطلبها» .

ــ «كذب والله هذا كلام «راتبة» تحجّل عليه وتعزّم على صيده لابنتها السوداء مثل عبيد الأرض السبخة» .

يتناثر الهمس ، والعيون تشد حافة الشق وتدور ، وسط الحلقات المتناثرة على عبق البن أو الصف الذي تتراص بمواجهته ، واحدة تسلم لأختها ، تتبرقع بالسواد ، وتشد الشاش الأسود أكثر ، ويضحكن ، يلطخن كعوبهن بالرماد المطفأ ، ويضمخن كفوفهن ، يحبكن الحزام على الخصر ، والكفوف تصفق برتابة ، والزغاريد ترسل صداها :

ــ «مَرْحبْ يالبَّاس الغالي . . . يابو زول عليه القيمة» .

ــ واحدة تؤوب وأخرى تخرج .

ــ مرحب خَزْرة بوكُمْبيل تعال جاي عليك آمان» .*(٧)

ــ يتلوى الصفّ ، يروح ويجيء يباغتها المبارز ، يلاعبها ، تروح وتجيء راقصة أمام خطواته ، تروح وتجيء بين تنهدات صوته بالغزل ، تتلوى بالقرب من أنفاسه ، لا يستطيع أن يمد يده ليسحب أطراف اللثام ، ويكشف الوجه المحفوف بالشبق ، ويتساقط على لثامها العرق ، تلهث باتجاه الشق وتخرج أخرى ، «ريحانة» عندما فعلت هذا لم تجذبها الجدَّة من ضفائرها المتدلية من تحت «القُنْعَة» ، ولم تَقُلْ لها «جلبت لنا الفضيحة يا خلفة السوء !» ، بل

ظلت مبتسمة والوجوه المليئة بالندوب بادلتها ابتسامتها بابتسامة أكثر اتساعًا وظلت النار مشتعلة حتى برق ضوء الفجر .

كنت قد قطعت نعاسي بالنعاس في حجر «سردوب» ، أرمقهم بعيني ، بقايا الليلة تترنح ، المواقد خابية والعبيد يجرون ركائبها ، والنوم يفلق حبة الفجر ، ويلوذ برؤوسنا التي أضناها السهر .

في الصباح ليلة جديدة نترك فيها «فوز» و«صافية» يرتّبان حوائجهما في الصناديق وتحزمان مالهما من مطالب ، وتترك بابها الموارب يزداد نحيبًا ، وشهيق نشيجها يعلو كأنه يؤنس صمت البيت الموحش رغم كل مظاهر العرس ، حتى ليلة الحناء ، لم تخرج ، دخلت «صافية» إليها وخرجت باكية ثم قالت للجدة :

ــ «ليس لي في العرس ولا الخضاب . . اتركوني معها» فنخزتها الجدَّة في صدرها بالعصا وقالت «صرت ملك رجلك يا خلفة السنوء . . منذ متى صار لك لسان يا بعر المطايا ، مالك خِيرة في شيء يا بغيضة» .

بكت «صافية» بمرارة ثم ابتلعت دموعها ومدت كفيها وساقيها للخضاب ، ولم تحوِّم «فوز» ناحية بابها الموارب ، حتى وهي تركب في «شبرية» عرسها .*(٨)

رائحة الحناء كانت تتسرب في كل ركن ممزوجة بالمستكة والبان وخليط الدهون النفاذة على الجدائل ، والأثواب الزاهية تطوى مضمخة بالعطور .

ولمع البرق ورنّت الأساور والخلاخيل والنبايل وكرادين الصدر .

انكفأ ظهر «فوز» النحيل من كثرة ما حملت من مزاين تصلصل في صدرها ووسطها ، وبدت «صافية» جميلة وحزينة وكأنها كبرت دهراً ، وجاءت «آن» ترتدي فوق سروالها عباءة كعباءة الجدة مطرزة بالألوان المتداخلة ، وأرسلت شعرها المذهب ، وكان وجهها بلا ندوب مطليًا باللون الوردي ، كانت مشرقة وجميلة وخفتت عيون النسوة ، وتبادلن مصمصة الشفاه والهمس كلما قامت أو جلست ، عيناها تروحان وتجيئان بين كل التفاصيل كأنها تمتصها .

جاءت الجمال والشباري منذ طلوع الشمس وجاء أبي فحمل جسد ابنة بعد أخرى ، ثم دخل غرفته وأغلقها عليه ، وتحرك ركب الفرسان بالخيول فالجمال والشباري ثم بقية الركائب وكان الحداء مبهجا .

ــ «وإن زغردت لي لأغنيٍّ . واشرح قلوب الحزينة ، وأنا عارف اللي قتلني . . أبيض ورقيبته طويلة» .«٩»

خبط الأكف وصفير الشباب في المقدمة ، والزغاريد من وراء المطايا والعبيد يجرون خلف الموكب :

ــ «عقدك من التارة للتارة . . . مزيكة في ايدين نصارى» .

يصفقون والخرطوش يهدر في السماء ، حتى نساء الفلاحين بصدورهن المفتوحة ووجوههن السمراء المكشوفة خرجن ومن خلفهن صغارهن ، يفتحون أفواههم بدهشة ولا ينطقون ، والصوت

كلما اقترينا صار أكثر جلجلة .

ــ «يوم أن قُلتم فَرَحنا . . لاجي والرِّجِل حافيِّة ، لفو البكرج على اليمين . . وحيوا ضيوف وحَلِّية» .*[١٠]

يرمح الشباب يتسابقون بخيولهم ، يسبقون الموكب ويعودون ، والصبايا يرمقنهم من تحت البراقع ويتعالى الهمس المعتاد ، والصفير يعلو من كل جانب .

ــ «يا ستار النار كلتنا . . . . والعين السودة قتلتنا» والزغاريد تفلق سكون الأرض الرملية وتصل السور الطيني والبوابات المفتوحة التي تتلقاها بمزيد من الزغاريد والخرطوش ، معركة حامية في السماء والأرض .

كان البيتان متواجهين ، غرف طينية مسقوفة بالخشب وعلى جانبيها الشرفات الواسعة والسلمات ، وبعيد تسكن غرف الخبير . والطبيخ بطينها الذي أكله الرماد ، والأحواش الواسعة بمرابطها وشجرة مستكة وحيدة تظلل فسحة البيت والبقية خلاء موحش منضود به خيمات متباعدة ، كل خيمة تعطي ظهرها للبيت وتواجه خلاء أكثر وحشة . قالت النسوة وهن يلتهمن اللحم المكدس فوق «أناجر» الخبز المفتوت :

ــ «سند ونس ، أختان في بيت واحد» .

ــ وقالت الأخرى «سترة البنت هم والله» .

وتطوعت الجدة بمواعظها «والله جلبة شؤم . . وقنايتهم حرام بضاعة تربيها لغيرك ، إن تركتها بارت وإن بعتها عليك الخسارة» .

ـــ صدقت يا خالة «حاكمة» نربي ونهنن ومسيرهن لحجر غيرك»

ـــ «يكفينا الله شر بلاياهن . . والله ما عاشت لي بنت ، قالوا يا حاكمة أين تذهب بناتك؟ ! قلت الله يكفيني شرهن ، مصلية والله مصلية وداعية» .

ـــ «صدقت يا جدة ، صدقت ، لكن بيموتوا كده . . قدر الله يا جدة ، قدر الله . أم؟ !» .

ـــ «قدر الله يا بنت ، داعية ومصلية ما يبقى لي منهن شيء ، مسافة ما البنية توأوأ يأتيها ستار الصبايا ، يحمل ويشيل ، لكن وليدي الله ابتلاه ، الله ابتلاه وهو صابر» .

يمصمصن شفاههن بتأثر ويتقاسمن قطع اللحم المسلوق ويتلمظن بالحكايا ، وحين ينفضن أيديهن من بقايا الوليمة يلملمن حوائجهن ويبدأ الركب في التفرق ، كل جماعة بواد ، ونعود ، أقل كثيراً مما ذهبنا ، ندلي رؤوسنا بحزن ، والجدة تتنفس بتأفف ، خلصت من نصف البضاعة وبقي همّ النصف الآخر ، و«سردوب» تنهنه بالدموع والبقية كل في ملكوته ، والبيت ساكن وهي في غرفتها غارقة في دمعها .

ليه يا عصافيرى بتنزلوا الغلة؟!

عدت لتسلق الشجرة من جديد ، كان خلف الوهدة بيت «فوز» و«صافية» ، صرت أتطلع إليهما من بعيد وربما أبكي ، وكثر هروبي في الليالي المقفرة بلا نجم ولا شعاع ، وخلف أشجار الشوك كانت تسكن الحجرة الوحيدة في العراء ، صارت مأواها ، حملت «سردوب» فرشتها .

ــ وقالت «أنا معها حتى يقضي الله أمري أو يشفيها» .

وقالت الجدة داعية :

ــ «والله يقضي عليك وعليها في ليلة واحدة وعلى هذه الجنية التي تعكز وراء كما» .

وتنهد أبي بصوت مسموع والجدة تواصل دعواتها :

ــ «كان وليد ، والله دمه في ثوبها ، دم وليد قانٍ مثل دم ذبيحة ، دم الخلفة المشئومة زفر» .

ـ «قدر الله ياستنا ما بأيدينا شيء» تهمس سردوب في لكنة مليئة بالاستسلام فتزداد تحفُّزًا!

ـ «قدر الله أم مس الشياطين، من يومها وهي جلابة رزايا، كل وليد يرزقها الله به ينخطف، يا روحي من صرعها الممسوسة، فال الشؤم».

لو كانت هنا «صافية» لتمتمت بالدعوات الأخرى في الحجرة ولقالت للجدة «الله ياخذك ما يبقيك على ظهرها ليلة، الله يلعنك مكان ما خطيت بقدمك يا مشؤومة».

أسأل «سردوب» في الغرفة المتربة لماذا يموتون؟! ، كلما كانوا ذكورًا ماتوا؟! تبتسم ولا تجيب إلا بكلمة واحدة «قدر الله» لا أفهم لكنني أستسلم لكفها، تفك جدائلي، وتأتيني «زهوة» قلت لها «منذ متى يا زهوة وأنت تهجرينني لماذا تأتين؟!».

هزت كتفيها ولم تجب ثم جلست جواري وكان ما حولنا صحراء حولتها الشمس إلى جمرة مصهورة، قلت لها أين اختفيت؟!، قالت:

ـ «مللت، «مُسلَّم» يحبسني مثل العفاريت في بكرج ويقول الشمس غادرة والقمر جاحد».

قلت لها وأنا أيضًا مللت. «آن» لم تعد تسأل عني والبيت موحش، والشجرة لا تكشف إلا الضباب وأنت هربت مني يا «زهوة»

أين كنت؟ ! قالت : «الجمَال كلّتْ من عشب الصحارى وكرِهَتْ الخف والخطمة واللجام . الجمال هجت بعدما فقدت عقلها» .

كانت حزينة وكانت الفرخة الجارحة معقوفة على الوتد تدفع رأسها بشموخ وعيناها تحدقان في المجهول . . . عيناها بلا كمامة وجناحاها بلا لجام ، لكنها ساكنة تلف حول الوتد وتنقره بمنقارها الجارح ثم تقف وتسكن . . رأيت في عينيها الدموع . . قلت لزهوة :

ــ «العبي معي يا «زهوة» . علميني خط السيجة وحفر النقل ، العبي . . . .» ،

جاء العبد وهش أغنامه وجلس قبال الفرخة ، كانت على الوتد فجذب الخيط المعقوف على ساقها وجرها بسن العصا ، صاحت زاعقة في الفضاء ، طارت قليلاً وتخبطت في الوتد فانقلب على ظهره ضاحكًا ، وانكمشت الفرخة أكثر . كانت بلا كمامة ورأيت عينيها داميتين ، تلفتُّ حولي ، كان الخواء وكان الظلام ولم يكن «الزهوة» أثر .

*

في الصباح حملنا الحمول وقلنا سبّعوا ، وعبرنا الأرض المزروعة والأرض البائرة ووصلنا الباب بأعلامه .

كانت «فوز» مورقة وضحكت وفاحت من كلتها رائحة العطر ، و«صافية» احتضنتني وبكت ، ظلت تطبطب على ظَهري وتبكي .

ــ «أمك حلوة يا فاطمة؟ !» اصمت فتعيد السؤال «أمك يا فاطم ما

بها؟ !» ، أتمتم ، «تصرخ وتتطوح وتسقط ، ويجففون الدم من بين ساقيها . قالت بتفجع «سقط وليدها؟ !» .

ــ «لا أعرف ، لا تكف عن الصراخ وسردوب أخذتها إلى غرفة الليمون» .

ــ «ما زالت تنزف يا فاطم؟ !» .

ــ «لا أرى شيئاً ، تنام هناك و«سردوب» معها» .

تواصل نشيجها وعديدها«يا ناري يا أمة . . مالي ومال الزفة والخضاب قلت أبقوني معها . . . .» .

تركت كل شيء وظلت تروح وتجيء تجمع من الصناديق خلقاتها وتعدد «يا حبيبة يا حبيبة يا مسكينة المساكين» .

تروح وتجيء وأنا أتركها لأدس كَفَّيَّ بين طيات عقاله . . .

ــ «تعالي يا شيطانة . . . أبوك كيف حاله؟ !» أضحك وأمد يدي لألتقط قطعة السكر النبات من صدَريته ، طويل ونحيل مثل أبي ، ومن صدريته كانت الحلوى والمنديل الأبيض يفرده بين أصبعيه ويلعب «أذنين الأرنب ، أذنين الأرنب ، والأرنب بري والصائد والغالب أشطر ، أذنين الأرنب» أضحك فتجاوزه ضحكاتي .

زوج «فوز» لا أراه . . لا أرى إلا ملابسه على المشجب ، صارت تلقب «صافية» بلفظة «يا عمة» ، أضحك .

ــ «كانت في بيت أبيك صفصوفة» .

تضحك ،

ـ «صارت عمتي بيدها مفتاح الخزانة والطحين» .

وصافية تروح وتجيء تجمع في الخلقات ، يلمح دموعها .

ـ «ما بك يا نور العين» يصبح بكاؤها نشيجًا «أمايتي مريضة ، أرجع لها . مالها من يرعاها . . البنتان صغيرتان» .

يزداد نحيبها فيرقّ «لا تغيبي عن دارك يا نوارة» .

تبتسم وتجذبني والجدة بمواجهته «يا مخرف يا عجوز . . كيف تترك عروسك ، تغور أمها في داهية جلابة الشؤم» .

فتزداد ابتسامته .

ـ «المهرة نافرة ولازمها سياسات . . . وأمها بنت عمي وعمك ما هي طريدة من الطرايد» تشوح بكفها وتواصل :

ـ «عَقلتْ رأسك هالملعونة ، الله يلعنهن جميعا وأنا أولهن» .

يتبادلنَ القهقهة وتعود «صافية» داخل حمولتنا تكشف برقعها وتدب بقدميها هناك في الغرفة المتربة . العرق يتفصَّد من وجه أمي ، و«سردوب» تبلل في الخرق «محمومة من يوم عرسك وهي محمومة» .

تكفكف دموعها و«ريحانة» تبكي في الركن المواجه ، نسمع خطواته فيسكن البكاء ، يدخل فتهشنا«سردوب»أمامها ، تنظر له بعينين نصف مفتوحتين والعرق يتفصد ، يمسك يدها فتنساب من الجفن المثقل بالدموع ، تختلط بالعرق ، يخلع عقاله ويجفف وجهها بعمامته ، ويجفف دمعة تترقرق ثم يتنهد تلك التنهيدة الطويلة

ويخـرج ، يسـحبني ويحـملني بين ذراعيـه ، مـا زالت في عـينيـه الدموع . . يردد .

ــ «يا فاطم الياس حـاكم والمُوح مكتوب» *«١١» ، لا أجرؤ على التنفس ، هل ماتت؟ ! ، يكمل «يا سماوات لو تبددت غيومك ! . . الطيـر إن هجـر لا يعـود ، ولا يرمي المكاتيب . . . الطيـر إن هجـر نسَّاي» .

السكون وحـده هو الذي صـار يطوِّق كل شيء ، عـادت «سردوب» ، جرَّت فَرْشَتَهَا ، عادت صامتةَ وساهمة ، لا شيء إلا عديد «يا حرقة قلبي يا ناري» . الطبول دقت حتَّى كرهت نقر الماء في أحجيته ، ظلت تدوي ثلاثة أيام ، العديد تتقاسمه النسوة ، الجدة ظلت تلطم خديها وتنوح مرددة معهن ، صابغة وجهها بالنيلة السوداء .

ــ كنت أميرة وبنت كرام

ــ كنت زهرة ما بين شجار

ــ كنت زينة ما مثلك حد

ــ كنت جميلة سبحان الصوار .

العديد صداه يضرب في أذني فأبكي وأنعس ، وتبكي «زهوة» معي تقول : «إن الأحزان مقسومة» ، وتصحبنا الجنية للبئر ، نرف في درجاتها وتضحك فتصبح لضحكتها ألف صوت ، تكشف جسدها الأسود المحني فنرمق في غضاريف ظهرها ذلك البروز الناتىء

الصغير ، تضحك بفم بلا أسنان إلا سنة واحدة كبيرة ، تحجب نصف لسانها وعلى جسدها الزغب الأسود يصبح أشواكًا «مسخوطة هي ، كانت ذئبة أم قردة؟» أسأل نفسي ، لا أجرؤ على التلفظ ، نرش على جسدها الماء ، وتصطدم كفانا بحجر ضخم نتحسسه برسومه البارزة ، نعاود رش جسدها وصدى ضحكتها ، يرجُّ حواف البئر فتختبىء الزواحف في الشقوق ، تقترب عيناها من عينيَّ فأرى في حدقتيها وجهي مذعوراً ، تمسك بالحصاة المشروطة وتجرح بها أسفل جفني ، يترقرق الدم فوق رمشي فأبكي ، فتبلله «زهوة» بالماء وتضحك ، وتتلفع بثوبها وتخرج ، أتحسس جرحي ثم أنساه ويدانا تعودان ، ننزع الصخرة المليئة بالنقوش ، نخرجها من قاع البئر ونلقيها على أول سلماتها ، تقول «زهوة» : «فرعون . نقش فرعون» .

وتشير بإصبعها «طيرة ، زهرة ، غزالة ، نقش فرعون» .

نترك البئر ونخرجَ ، عيناي مقروحتان من البكاء والجرح ينزف دما ، تقول «زهوة» «أمك سكنت أرضًا جديدة لا تحزني» .

يطاردني التعب فأنام وحين توقظني «سردوب» تتحسس جرح جفني .

ــ «من جرَحَك يا فاطم ، من أصاب عينك؟ ! إنها متورمة»

تحملني بين ساَعديها وتطبطب على جسدي .

ــ «يا صغيرة يا فاطم باكية ومفطور قلبك يا بنتي» . . «من أصابك يا فاطم؟ !» .

أهمس في أذنها ربما تصدقني . . «الجنية المسخوطة لها نتوء في ظهرها ، ذيل ، والله ذيل يا أمة «يا سردوب» . قالت لي «زهوة» نرش ماء البئر ، فتبادلنا رشها ثم جرحت عيني ، وخزتها بالحصوة المدببة ، قالت «مفتاح الحياة شعرك سيمتد ، ويتشعلق بالسحاب وساقاك مغروستان في بئري ، أحصنك برسوم الفراعين ، لن تموتي وحول ضفائرك لن تحوم الغربان» .

تطبطب على ظهري؟ ! . . «نامي يا صغيرة ، نامي يا فاطم ، صرت تتحدثين عن الموت والحيا . . نامي يا صغيرة وأنا أبدر لك سبلة واطير لك زغلولة ، وأدق لك دهبة . . .» .

لمَ لا تصدقني؟ قالت لي مفتاح الحياة ورأيته تحت عيني رسم فرعون ، لمَ لا تَصدقني؟ ! ألم تجد حجر فرعون في بئرنا وقالت نحفه ونطحن عَليه طحيننا؟ !

«صافية» أدمنت دموعها ، تتلفح بالسواد ولا تجيب عليه .

ــ «بيتك يا نور العين» .

ــ «أتركهم لمن؟ ! صغيرات والبيت خاوي . لا مَحنَة ولا راعي» يعاود كل مرة يحمل لها زجاجات العطر ، وأثواب ، ومجرات الذهب تشبكها في عري الثوب «يا الله يا نور عيوني» يهمس لها فتضيق أكثر .

ــ «ما قبل العام اخطي دارها . . . دمها لم يجف وأنت لا يشغلك إلا غيتِك وغياتك» . .

ودعوات الجدة لا تزيدها إلا إصراراً على ما عزمت :

ـ «رجلك وضع نعاله تحت رأسه من لوعك يا مشؤومة . . انت لا يُصلِحك إلا العصا . مخرف ورايدك ، والله إن كان رجل غيره لجرك من شعروك يا ملعونة» .

ـ تجيب بتحدٍّ «أتركهن لأجد مَنْ غارقة في دمها تلك المرة؟ !» .

صار لسانها يطاوعها على التطاول والرد ، وأبي يطلق تنهداته ويرحل بمقلتيه بعيدا ، أبعد من الوهدة والربوة والأرض البائرة . . و«ريحانة» عادت لتطريز الأثواب في صمت ، والبيت موحش ، و«آن» لا تسأل عنّي حتى حين عرفت بموتها لم تجيء ، وشعري أصبح أكثر استطالة ، كل يوم ينمو وتستطيل الضفائر وسط صراخي ، و«صافية» تمشطه والليل طويل والشجرة لا تكشف إلا الفضاء والأرض الخربة . نقيق الضفادع يصبح إيقاع طبل ينقر حزني .

والصابر ينول الخير، وامبارح منامي قال لي...

قالوا الصحراء بحر . . من يعب في رمالها؟ ! قالوا الجمَال ، لكن الجمال بعد ما صبرت وصبرت وأكلت من شوك البوَادي وهزل سَنامها . . حرنت وكلّتْ وطلبت ثأرها من الخف والخطمة واللجام .

فاحت رائحة الهواء المترب فقالت «سقيمة» :

ـ «خماسين . . الغزالات تُمَأمئ» .

تلثموا بالعمائم وخبأوا أفواههم وحط السكون ، صفير الريح وحده هو الذي تكلم ، وزامت الريح أكثر ، ورمحت وطمست بالغبار عين الشمس التي تورمت قزحتها فأحكم «مسلم» لثامه وأدار نصف عباءته حول كتفيه واشتد العضف فسحب قدميه وخطا إلى فرشته بينما الرمال تركل كل شيء في طريقها ، يسدلون حواف الشق ، ويقرفص في الركن المواجه بعيداً عن عيونها ولا تكف الريح عن الزوم . يحط الصمت ، حتى الليل بلا نجمة ، الغبار سحب داكنة

يسرح «مسلّم» ساهما و«سقيمة» لا تكف عن الترنم بأغانيها وهي تفتل الصوف باللعاب ، و«زهوة» تفرِّد كفي وتقرأ . . «كان فيه ملك وملكة لا ينجبان إلا بناتاً ، كلما حملت شيئاً في بطنها وانتظر الملك وريثه ، جاءته ابنة يلقي بها في بئر قصره» .

قلت لها «الجدة «حاكمة» لا تلقيهن في البئر ، فقط تخنقهن ، مثلما رأيته يخنق أمي ، هي قالت له أن يبرك فوق جسدها ويقتلها ، لكنه كلما همّ رأى عينيها الدامعتين فيشفق عليها ويعود إلى غرفته ، «ساسا» أيضاً رأته يخنقها مرات عديدة ، يغلق الباب بالمغاليق ولكنها لا تموت ، الصبيان وحدهم يموتون منها» .

قالت لي ثانية «صلِّ على النبي ، صلِّ على الحبيب» وفردتْ كفّي وأكملت « . . كلما ألقى واحدة في البئر خرجت نخلة صغيرة حوله ، حتى صرن سبع نخلات تحمل العناقيد ، ولكن الولد لم يجيء فبكت الملكة ونذرت النذور ودعت الرب أن يهبها أي شيء إلا تلك النقمة ، فحملت ، وحين جاء مخاضها قالت له الوصيفات ولد مَحيَّاه ألا تراه عين بشر حتى عينيك إلى أن يحين الأوان» .

قلت : لو حجبوا الصبيان عن عينها لعاشوا ، كانت «صافية» تقول ، إن عينها تفلق الحجر ، عينها الجافية هي التي أودت بحياتهم لو أخذها ربها لأراحنا جميعاً ، لكنها بقيت ورحلت أمي .

صمتت «زهوة» سئمت مقاطعتي لها فقلت أحثها على إكمال

الحكاية «ويعـدين؟ ! ويعـدين يا زهـوة . . . هل آن الأوان» تصـرف وجهها عني ولا ترد .

صوت «سقيمة» يهنهن «الصابر ينول الخبر» . أخوض غبار الليلة الداكنة وأمضي أقفز من شجرة إلى أخرى وأراقب الخواء ، تتنهد «صافية» حين أحكي لها :

«كان فيه ملك وملكة لا ينجبان» . تصرخ في شرودي مولولة :

ــ «يا كبدي الذي تفتين فيه ، من أين جئت بهذه الحكايا . . والله ما أفسدك غير معاشرة العبيد يا جروة ، مالك ومال «ساسا» و«سردوب» وتلك العنزة التي تلملم الفتات وتسرح تحت بَعْر الغنم «موحة» ، بنت الأجاود لا تجد غير «موحة» ، و«ساسا» تتعلم منهن هذه الخزعبلات» أصرخ فيها :

ــ «حكتها لي «زهوة» . . لماذا لا تصدقينني . «زهوة» التي بجديلتين تسكن واحة «مسلَّم» و«سقيمة» والعبد الصغير . ألا تعرفينهم؟ !» .

تلطم خَدَّيها مولولة «والله ما خف عقلك إلا مما رأت عينك يا صغيرة . .» .

أرضى بنبرتها الحانية ، تلك المرة لا أعلق ولا أحاول إقناعها بشيء «ريحانة» دائماً ساهمة ، من يوم أن فارقتها «فوز» وهي تطرز دون أن تتكلم أو تضحك ولا يبدو عليها المبالاة بشيء ، كثرت عباءاتها ومفارشها ، خاطت بالألوان ، حاكت كل ما تطوله يدها من أقمشة

بالخرز حتى النعال والجوارب ، كل سوق تضفر «ساسا» جديلتها بالصوف وتتعطر ، تجلب لي شعر البنات وقطع السكر ، وتجلب لها خيوطاً ومسلات وصدفًا وخرزاً ، كبرت «ساسا» .

تقول «سردوب» «شبت النار في الجسد الناعس» فتلفتت إليها أم «ساسا» بخوف . كبرت «موحة» أيضًا ، صارت ترضى بأن تكلمني أحيانا أو تحكي لي ، وترضى بأن أجمع لها قصاصات الأثواب ، وتربت على كتفي بعطف كأنها صارت «صافية» أو «سردوب» ، كبرت «موحة» لكنها لم تكف عن غموضها وصمتها ، وعيناها الضيِّقتان لا تبوحان .

قالت أم «ساسا» «لسردوب» :

ــ «إن خرج سيدي وسيدك للقنص نخف الغرسة» .

ــ قالت «سردوب» «اتركي الزرعة للزراع» .

ــ قالتها ثم أكملت «مادام العقل راس أتركي الحال لصاحبه» .

ــ قالت أم «ساسا» بإصرار «صغيرة والعقل وشاش والصاحب غائب . .صغيرة بنيتي يا خالة» ، فتنهدت «سردوب» بتسليم «بنيتك وأنت راعيها» .

أسأل «سردوب» عن الزرعة فلا تجيب ، أقول لها و«ساسا» تصرخ من الغرفة المغلقة ومن بين فخذيها يسيل الدم .

ــ «حرام يا جدة لماذا تنتقون زغبها . . رأيته وهي مع «موحة» تستحم . .» تطبطب على رأسي لأنام أو أذهب .

ــ «إنه يوجعها يا أمه «سردوب» . . «ستموت ساسا . لقد نبت

وحده ، لم يزرعه أحد» .

وحين أسأل «صافية» «كيف يزرعون الشعر ولماذا يَخفُّونه»؟

ــ تمصمص شفتيها وتشهق «مالك ومال الشعر والزَرع والقلع . . العبي بعيداً عنهن» .

«فوز» لم تأت ، وتجاعيد الجدة «حاكمة» حاصرت بروز وجهها بالبقع الداكنة ، وأَبي لا يعود ، و«آن» لا تسأل عني .

أعاود الهرب ، ومن شجرة إلى أخرى يحاصرني الخواء ، اطل عليّ قبب الخزين الطينية تزحف خلف جدارها الكائنات السارحة ، وبنات نعش في السماء يرقصن بسبعة أرواح ، يغبن ويطلعن من جديد .

*

هَلَّ الهلال بعد غيبة طويلة ، فتحوا البوابة الضخمة وَهَبَّتْ «سردوب» من مقعدها ، وجرى الصغير والكبير ، حطت رحاله أخيراً ، دخل ، وجهه أكثر شحوباً وحول عينيه الهالات . وغبار الرحلة يأكل من وجهه النحيل ، قبَّل يدها ، وضمني :

ــ «فاطم يا غزالة أبيك . . ضفيرتك استطالت ، طالت غيبتي عليك . .»

صار أكثر حناناً ورقة ، سألته الجدة عن السارحة والواقفة في مربطها ، وأبناء العمومة والخؤولة ، فلم يرد إلا بكلمة واحدة :

ــ «كله زين» .

شرد فجاءت «صافية» وقبلت يده وتبعتها «ريحانة» ولم يجرؤن على الجلوس مثلي ولا التلحس في أقدامه ، نادت عليها ونظرت له :

ــ «حتى متى تتركها تجلب لنا العار هاجرة أهلها وسيدها» .

تلمع الدموع في عينيْ «صافية» فيزداد شروداً ويضمني :

ــ «فاطم يا صغيرتي ، قولي لجدتك ، أبوك هدته المواجع» .

تختلط في وجهها أمارات الغضب بالقلق ولَا تعلق . لكنها لا تطيق الصمت أيضًا :

ــ «بيت بلا رجل ، واحة بلا بئر . . أرض خراب ، ما يقيم الخيمة إلا الوتد ، والوتد تلزمه أرض تحتضنه . . المرأة مرعى إن صلحت ، احتميت به من القفار يا وليدي . . .» .

أفتح عينيَّ لأرقبه ، ما زال ساهما .

تأتي «فوز» أخيراً ، بطنها منتفخ ، وصدرها يعلو ويهبط ، ولم يأت زوجها ، أتى أبوه ، وكان غاضباً لم يخرج من صدريته قطع السكر ولا لعب معي لعبة الأرنب ، قال لأبي بحزم :

ــ «البنتان رجعتا إلى دارك إما أن تردهما اثنتين أو تبقيهما في مرعاك ، صبرت عاما ، وسايَست المهرة حتى تعلمت الحران ، إذا لم تعرف كيف تعقف لجامها وأنت أبوها فكيف يسوسها سائس؟ !» .

قال ذلك وكفى القهوة دون أن يشرب وهب واقفا «الهلال سأعرس أنا وابني بابنتيك أو ببنات غيرك» .

ولولت الجدة على أثره وهي تسحبها من جديلتها .

ــ «يا خلفة السوء . . ماذايقول فينا العريان . . .؟ ! قلت حِداد ، ولطمت حتى شبعت» .

«والله إن ما جمعت خلقاتك وأطعت سيدك ورجلك لأذبحك كيف الذبيحة وأعلقك في وتد بيته يا عاصية يا ملعونة» .

نحبت «صافية» وأعادت نشيجها «البنيات صغار» .

قاطعتَها بحدة . . . «سنجلب لهن من يرعاهن . . . أفرغي مكيالك من هذا اللوع . . والله ما حد يحتاج للتربية مثلك يا خايبة الخايبين» .

تبادلن الدعوات واحدة في الجهر وأخرى في سرها ولم يعلق أبي ، سهم بعينيه في الفراغ ثم توسد ساقي المطوية وبدأت أصابعي النحيلة تتخلل شعراته بمحبة ، «آه لو لم تكن خنقتها بيدك ، مرة رأيتك ومرات حكتها «ساسا» لكنت وضعتك في حبة عيني ، لكني رغم ذلك أحبك» ، أسرح بخاطري وأفيق . «فوز» و«ريحانة» يتناجيان ، «ريحانة» ضحكت أخيراً ونشرت أمام «فوز» كل الذي خاطته في غيابها . تناجيا بمحبة ولامبالاة بما يدور ، و«صافية» تدب بساقها وتعبىء في خلقاتها وتبكي بعينين مقروحتين . يوم يومان وفي الثالث حملهما أبي إلى دارهما . وعادت للبيت وحشته وسكونه رغم أن العرس كان عرسين ، والبضعة كانت بضعتين كما تقول «سردوب» ، كانت «ريحانة» تلملم في خلقاتها وتدق الذهبات

بصمت وبلا زغرودة ولا طلق خرطوش ولا ثوب عرس . دخلت «دوابة» برنة خلخالها وجسدها النحيل . تقول الجدة «أصيلة وبنت عم»

وتقول «سردوب» :

ـ «الدوام لله والفارغ مسكون» .

ولقد خلا البيت إلاّ من دبيبها على الأرض بخلخال غليظ مليء بالعملات التي ترن في السكون . قالوا ستأتي بالبنين ، ستعمر البيت الخرب ويسكن الوتد في الأرض العفية ، لكنه لم يصبر إلا أسبوعًا ، وعاود الترحال ، يقول «قنص وصيد» ، وتقول الجدة .

ـ «هارب ليه من وليفك؟»

احتلت حجرتها ، ذلك فقط ما حز في قلبي فاخترت غرفة الليمون وسكنت إلى الفراش نفسه الذي ماتت عليه ، نفضت كلتها ورمتها ولفت الفراش وجاءت بالصبايا يمززن القطن وصنعت الأغطية والفرش بعد أن جاءت بالرمالين والعجائز يطلقون بخورهم ويتلون تعاويذهم ، وترش ماءها على الجدران ويكتبون لها بالمحبة ، لكنه لا يعود ، قلّبت الرمال وتطلعت في الجهات وأختارت الفأل الحسن في كل خطوة ، لم تكن «صافية» هنا تولول على الذكريات ، لم تكن إلا دموعي فدفعتها وجففتها «سردوب» بكفها وقالت .

ـ «وعيت يا فاطمة ، عرف قلبك الخزن يا صغيرة» .

وأحسست أن البيت صار ضيقاً رغم أن الحجرة صارت خالية

والفراش بلا أنفاس مؤنسة ، وجسد «سردوب» و«ساسا» وأمها تحت قدمي فلم أعد أطيق النوافذ ولا السور ولم أعد أطيق إلا حافة الشجرة العالية ، أتسلقها بالليل وقد أغفو عليها ، وأتسلقها بالنهار وأراقب الحياة حولي ، ولا أطيق البيت شرقه وغربه ، والجدة صار نظرها كليلاً ، فلم تعد تراني ولا تهديني دعواتها المعتادة ، سكنت للعجز .

«دوابة» تسرح في البيت مشغولة بالبخور والتعاويذ وهو بعيد ، تغيب سفرته ولا يعود ، قالت لها النسوة المتلفعات بالتلافيع .

ـ «الطير هاجر وليفه؟ !»

تساءلوا فلم ترد ، كان بطنها قد انتفخ فانشغلتْ به وأحستْ بالزهو لدرجة تجعلها لا تهتم بأحد ، وضاق البيت أكثر .

ورأسي لا يهدأ إلا فوق العرف الذي مَدّ على الجسر ورقه ، لكن النعاس غلاّب ، تلك المرة حينما سقطتُ من على الفرع قالت «سردوب» بعتاب «تاني يا فاطم» وكانت ساقي تؤلمني ولم تنفع معها اللفائف وأحضرت من يجبرها وسط صراخي فخرجت الجدة من صمتها وقالت :

ـ «ألم أقل لكم هذه الملعونة . . ممسوسة وعرجاء» .

صار اسمي لديها العرجاء . . العرجاء ذهبت ، العرجاء قامت ، حتى «دوابة» صارت تستخف هذا اللقب ، تناديني وتضحك كأنها مقالة لطيفة مضحكة .

لا العرف ولا الشجرة ، الحبو فقط والنوم وسط فراشي هو ملاذي

الوحيد ، والبيت ضيق مهما اتسع ، ودبيبها فيه يخنقني والوحشة تطوق كل شيء ، بكيت . تهمس «سردوب» «ما يبكيك يا صغيرة . . ساقك سيلطف الله بها ، لا تخافي ، الصبايا لهن ألف وجه ، غدا سيعكزن من الكبر وأنت تتمخطرين كما القمر في بهاه . البنت بسبعة وجوه» .

أبكي كثيراً في أحضانها أقول لها «لا أريد أن أرقد هناك . . في غرفة الليمون ، . . لا أطيق البيت يا امه «سربوب»» .

تمسّد شعري بكفيها وتكفكف دمعها ، في الصباح تجذب «سردوب» فرشتها وتشدها إلى هناك ، تنفض «ساسا» العنكبوت من الأركان وتسد الشقوق بالطين ، وترش الماء . . غرفة وحيدة بشرفة نصف عالية ونافذة ضيقة . هناك بعيد ، الشوك والأشجار والبرج وغرف الكرار ، هناك في آخر السور ترقد الغرفة التي نزفت بها أمي وماتت وهي تقول «ممسوسة ، تسقط وليدها ، المصروعة . . ما تعاشر مسلمين . . تلك المرأة . . ممسوسة . عيني عليك يا ولدي . تعاشر المجانين وصابر» . . . حملت «دوابة» فراشها إليّ ، كلتها وغطاءها ومرآتها وصندوقها بخلقاته ، أرسلتها مع أم «ساسا» كأنها تتخلص من همّ يقلقها ويجلب عليها الشؤم ، استراحت لرغبتي في فراقهم ولم أكن أضايقها في شيء ، لكنها استراحت ، وذهبوا وبقيت «سردوب» تطبب ساقي وتمسد في النهار شعري وفي الليل نجلس في الشرفة نراقب النجمات ونتبادل الصمت . وحين عاد قالت له :

ــ «ابنتك مخبولة . . تكلم نفسها ، وتتشعلق في الليل مثل السعادين على الشجر ، وتعاشر الجنيات ، لو بقيت معي فسألفظ وليدي . . ابنتك مشؤومة . . قالت الرمال ، كل الرمالين قالوا في طريقي حجر أسود ، ابنتك مشؤومة إن كنت لا تخاف على وليدي فأنا أخاف . . حتى جدتها لا تناديها إلا بالمشؤومة» .

تَفَلَتْ في صدرها وأكملت «معها من يخدمها إن أردتها اذهب إليها أو أذهب أنا إلى بيت أهلي» .

فجاءني وجلس جواري وجوار «سردوب» وصمت ، كانت ليلة مقمرة ولم يأخذني في أحضانه ولم يضع رأسه على صدري ، كانت ساقي ممدودة أمامه ورأيت دمعة ساكنة في مقلته ، فسألته «هل «نعش» هو الذي دفن بناته أم هن اللاتي دفنّه؟ !» لم يجب .

قالت «سردوب» .

ــ «كبِرتْ فاطم . . صارت تعي وتفهم وتحمل الهموم . . أنظر لشعرها . . » .

فلم ينظر ولم ينطق بل قام ساهمًا كما أتى .

صارت زهوة تأتيني كثيراً ، أحادثُها و«سردوب» تسمع ، «سقيمة» أيضاً كانت تنظر لي بمحبة . وتردد مقولتها التي لم تغيرها بعد :

ــ «الصابر ينول الخير وامبارح منامي قال لي» .

*

يأسين ومزوح وستبغ جزوح

أنا منهين خايف على الزوج «٢»

الصحراء تلفظ حدباتها وتعاريج جسدها الرخو وتتغير ، والرمال تحبو ، والسيول تختط أخاديد حزنها فوق المسالك ، تلك الخماسين المغبرة لا بد أن تأخذ معها أحداً ، تزوم ، تزوم وتصفر ثم تختطف مهرة أو بغلة وأحيانا خيامًا وشقوقًا ومرابع . ولقد اختفى «مسلّم» رغم أنه كان يعرف تلك الغبراء ككف يده ، يعرف سماءها ولياليها وأحوالها ، يعرف أين ينصب خيمته ، ومتى تنوء السحب بأثقالها ، جاس الصحراء شرقًا وغربًا ، خبر لياليها وأيامها وآبارها ، حين كان يمد قدميه اليابستين في خشونة ، ويخلع عقاله وتنبسط شفتاه بالحكايا ، يحكي عن قبائلها وأصولها ومرابعهم وأحوالهم ، كانت تلك الصحراء في قبضة يده .

تساءلوا عن قبيلته أو نسبه ، بعضهم قال : فلاح غوى حياة الأعراب فاحتقروه ، لكن حين رأوه يتغنى بأشعار المتنبي وابن الرومي وغيرهما يحفظ ويروي في جلساتهم ينبهرون ، بعضهم تكهن

من لكنته نبرة معممي الأزهر وكتاتيبه ومجاوريه ، لكن هذا الشك في أصوله تبدد حين رأوا كيف يقلم نخيله ويلقحه ، وكيف تنفلق نواياتها عن غرسات جديدة حتى تشتد خواصرها ، كما أنه كان يعرف في الخيل أكثر منهم ، يخبر عن أصولها فوق ما يعرفون ، بل كانت المهرات العواصي هواية من هواياته ، يتركونها عنده فتصح وتسمن وتنقاد لراعيها ، هذا إلى جانب خبرته بكل أعشاب الوهدة ، يقطف ويصحن ويمزج ويداوي ، لكنهم رغم حيرتهم في أمر نسبه لم يجدوا بدا من توقيره ، فإلى جانب كرمشات العمر على وجنتيه وجبينه فإنه كان بطبيعته وقوراً مهيباً وكريماً ، يفتح شقه للراحل والآيب ، وناره تفوح بالبكارج وطعامه في ثنايا كل فم ، ثم إنه كان لا يناوش أحداً وليس له مطمع في شيء بل كان الجميع يعرفون الطمع فيه ، فإن كانت الآبار هي محراب الرعيان وموضوع نقارهم وشجارهم ، فقد كان يحفر ، ويشتل النخلات ، ثم إذا تجمع الرعيان حوله ونصبوا خيماتهم ، غطس بقدميه في الصحراء الواسعة وغاب يوما ، أو يومين ، ثلاثة ، ثم يعود فيحمل مخلاته ، ويجر خيمته على مهريه ويمضي ينصب موطنًا جديداً ، يدقدق بنعله فوق التراب ويحفر ويغرس ويبدو كأنه يألف المكان الجديد أو هو يألفه ، يقول ضاحكاً حين يسألونه :

«الآبار كالضروع تنضب وتمتلىء حين يحول حولها» يفتحون أفواههم بدهشة . هل جاس الصحراء كلها ، هل خبر الناضب

والممتلىء ، هل هو معمَّرٌ إلى هذا الحد؟ !

حين غطس تلك المرة لم يعد ، كانت الخماسين تعفر ، اختفى من أمام خيمته ، استطلعوا كثيراً وسألوا الرائح والغادي واختلفت الأقوال في اختفائه ، كما اختلفت في أحواله ، سألوا «أبا شريك» دليل قوافل الحجاج عنه ، تسامروا معه طويلاً فقال لهم :

ــ «إنه كان رجلاً غنيًا موسراً ، كما كان أنه يملك إقطاعاً كبيراً من أرض النيل الرخوة المزروعة ، وأنه تزوج امرأة تركية يقال لها «ظاطا» أو «لاظا» لا يعرف بالضبط اسمها ، كانت شديدة البياض ، البدانة كقنطار من القطن المحلوج يترجرج ، فقد مر على فناء بيت أحد الصناجك ورآها تُشّمط شعرها في العراء ، كان شعرها النائح طويلا وكان على فرسه الشهباء فوقف قبالها وغمز بحاجبه وقد هاله بياضها وحلاوتها ، فقذفته بحصوات الرمل والطوب ، وبدت له لما قامت صبية صغيرة لكنها توشك على الفوران ، فتزوجها ويقال إنه أمهرها كل ما له ، ثم استدارت المرأة أكثر ، وصارت أكثر بدانة وربما استبدت به أو تفاخرت بأصولها التركية عليه ، لا أحد يعرف ما تم بينهما بالضبط لكنه بعد ذلك عاف الحياة معها وصار يعشق الهجيج بخيمته وهجينه ، وكثر قنصه وترحاله في الصحارى شرقًا وغربًا ، خصوصًا ، أنه لم ينجب منها ولا من غيرها وأنه بطبيعته لا يألف ضجيج البيوت ولا حركتها . وأكد «ابو شريك» أن المرأة التركية هذه ما زالت موجودة هناك وأنها صارت عجوزا قحبة ، لكنها ما زالت بيضاء ممتلئة أكثر من القنطار الأول وأن خطوط الزمن برزت في

الجلد الأبيض زرقاء أو عروقًا مُحْتَقَنَة» .

وقد رجح «أبو شريك» أنه حن إليها وتكفن بونسها . أيامه الأخيرة قال ذلك وصمت وإن كان ما قاله لم يكن مقنعا فكيف يترك «سقيمة» أو عجوزه الضامرة و«زهوة» ابنته وحدهما في الخلاء ، خصوصًا أن «سقيمة» زوجته أيضًا ، صحيح أنها ليست بيضاء ولا تزن شيئًا في قناطير القطن أو خلافه بل هي قصيرة القامة جداً إلى جواره ويلون الرطب وشديدة النحول بالإضافة إلى تلك الوشمات المنحوتة على ذقنها وكفّيها ومعصميها ولكن عينيها رغم صغرهما كانتا تشعان نشاطا وخفة وألقا ، كانتا فاتحتين وشديدتي اللمعان ، يكشفان عن طيبتها وتفانيها .

كنت أود أن أقول «لزهوة» إن أبي هج أيضًا ونسيني ، وأنه لا يحب «دوابة» ويكره البيت ، مثلما هج «مسلّم» من «لاظا» لكنه لن يتركني ، لن يترك فاطم أبدا ، لكني لم أجرؤ حتى على سؤالها عن الملك الذي لم يره ولده وهل آن الأوان ليراه؟ ! ولم أفتح فمي فقد كانت حزينة وباكية وقد ضقت بالعينين المقروحتين من البكاء ، لكنني احتضنت رأسها بين ساقي وكانت يداي صغيرتين لكنهما كفكفتا الدموع من على وجنتيها .

قلت «السردوب» إن «مُسلّم» هج ، «أبو شريك» يقول ذهب إلى «لاظا» هل ذهب أبي لأمي أيضًا؟ ! هل يعود؟ !

لكنها لم ترّد ، قالت «كل غائب يعود في أوان» .

فسألتها عن أوان رؤية الملك لمولوده الذي لم يره فلم تجب وغاصت في الصمت ، وكان نقيق الضفادع هو كل ما نسمع من ضجة الحياة ، تأتي «ساسا» بالطاولة صباحًا ومساء فنأكل ، أتقاسم أنا و«سردوب» الطعمة وأحيانًا تشاركنا «موحة» التي صارت تطرز على أثوابي عرائس وأسوداً ووردا مُتَفَتِّحًا ، تحتضنه المثلثات المتداخلة ، وقد تحكي لي عن الغزالة التي أنجبت ثلاث صغيرات وطاردها الذئب فاختبأت منه في غبار الطحين وشقت الأم بطنه بقرنها لتبحث عن صغيراتها .

«سردوب» لم تعد تحكي شيئا ، غارقة في الصمت ، تدش على الرحى التي حُفر على فلقتيها رسوم الفراعين ، تطحن الحبوب وتعبئها وتحملها «لساسا» لتضعها في غرف الكرار ، تقول :

«أحَلّل لقمتي» لكن ذلك لم يكن صحيحًا فقد صارت تدير الرحى على الفراغ ، لا تجد ما تطحنه فتظل تمسكها من وتدها وتدير فلقتها وتبتسم بحبور ، أنظر لها ولا تتكلم . . . تقول «دوابة» حين تعرف عنها ذلك :

ـ «قلت البنت مخاوية الجنيات ولا تصدقونني . . من عاشرها لا بد أن تصيبه الرزايا . . ممسوسة يا خلق ، من يقربها هالك» .

لكن «ساسا» لم تكف عن المجيء ولا «موحة» .

و«سردوب» تطحن في الفراغ وتبتسم وأحيانا تحتضنني في الليل ، عزفت «خيرة» عن الطعام فأتوا بها إليّ ، صار صهيلها يؤنسني ،

أزحف إليها وأكلمها .

«خيرة» يا حبيبتي . . هل تريدين قطعة سكر؟ ! ، ذهبت «صافية» يا خيرَة و«فوز» و«ريحانة» ذهبت ، حتى الجدة صارت عظمة على كرمشات مطوية» «خيرة» حين تطيب ساقي سأرمح بك ، سأفتح الباب ونهرب . . «موحة» ستدلني على طريق «زهوة» نهرب إليها ، صارت وحيدة مثلي ومثلك» .

حين يعود أبي ، يجلس جانبي ويشرد ، ولدت له طفلة ، أسماها . . «سماوات» ، قالت «سردوب» . . «على اسم المرحومة» فلم أكن أعرف أن اسمها سماوات ، كنت فقط أعرف أنها أمي بعينيها الدامعتين . وجاءت «آن» أخيراً ، هزت عرف «خيرة» وبدت كأنها نسيتني ، قالت لأبي .

ـ «مهرة أصيلة . . لو فكرت في بيعها فتذكرني» .

ـ وأشار أبي قال «مُهرة فاطم» التفتت إلى وجودي ، كنت أزحف فقهقهت .

ـ «ثاني يا فاطم» .

ـ قلت لها «هذه المرة الجرح غائر» .

فاكتشفت أن شعري قد وصل حافة ركبتي وتأملتْ في الجرح أسفل عيني ، قالت «من وشمك هذا الوشم؟ ! قلت «الجنية المسخوطة . رأيتها مع «زهوة» .

ضحكتْ أكثر ، عادت إليها قهقهتها وتعلقها بكلماتي .

ـ «تعالي . . تعالي يا فاطم . . هل ترضين أن أقترض منك مهرتك

نروضها . . ونأخذ من نسلها مهرة جميلة أخرى وأعيدها إليك» .

قلت بعنادي الذي ألفته :

ــ «لن أترك «خيرة» . . «خيرة» مهرتي» .

فأجابت على الفور .

ــ «من قال إنك ستتركينها . سآخذك معها» .

ثم نظرت لأبي .

ــ «ساقها تحتاج علاجًا ، ربما جراحة . . إنها صغيرة ولا أحد يرعاها . . سأعلمها . . ستصبح أميرة» قالت كل ذلك دفعة واحدة فلم يرد ، هز رأسه بأسف وتسليم ، وخرجت الجدة من صمتها لتلعنني . . . . «يا عويلة . إلى أين تتركين بيت أبيك يا عرجاء يا مشؤومة . . مصلية وداعية عليك بالخلاص . . . الله يخصلنا من شؤمك» .

قالت ذلك وهي تحزم خلقاتها أيضًا «البضعة اثنان اثنان» كما تقول «سردوب» ، تجمع الخلقات لتلحق بقوافل الحجاج تقول :

«العظمات كبرت والباقيات الصالحات خير» . . وتلعب بيدها المعروقة في المسابح .

«سردوب» تجمع لي كل ما طرزته «موحة» لي من أثواب ، و«ساسا» تفك جدائلي الطويلة ، ويصبون الماء ، وجاءتني «زهوة» وفي عينيها تلك الدمعة المثقلة ، قالت .

ــ «ستتركينني» ، قلت :

ــ «سأعود يا «زهوة» سأعود ، ستطيب ساقي ، لا أريد أن أظل هكذا أحجل بساقي . . عرجاء» .

سكنتْ ثم خلعتْ قلادتها وأعطتها لي ، كان بها سبع عيون ، بحبات زرق ملضومة ، قالت «البسيها يا «فاطم» تدفع عنك السوء» .

ــ أضحك . . «أنا «فاطم» المشؤومة العرجاء ماذا يدفع عني شؤمي يا «زهوة» . . . ماذا يدفعه؟ !» أبكي في حجر «سردوب» فتتمتم .

ــ «يا ترى متى تتلاقى عيون الغياب يا فاطم» .

ــ فأدس رأسي في حجرها وأواصل النشيج ثم تسحبني آن للعربة بمقاعدها المكسوة وهي تجذبني من جديلتي ، كلما سرحت تقول بلكنتها الغريبة .

ــ «ها فاطم» . . ها سعيدة؟»

فأبحر بعينيَّ بعيداً والعيون في قلادتي باكية كجروح مفتوحة في صدري .

*

بيني وبينهم بلدان والخاطر بين نارين

القصر والمقاصير موحشة والسماء مليئة بالضوء والقناديل ، والنجوم باهتة ، أبحث عن «نعش» وبناته . . أبحث عن «الزهرة» في الليالي الكالحة ، أبحث عن رفيقات القمر ، لا أرى إلا سماء بعيدة وصفراء باهتة وأضواء القناديل تنعكس على المرايا فتفسد كل شيء . قلت لها ذلك فقالت . «يا جامحة . . هي الحضارة» ثم قالت بحزم أكثر «ستألفين كل شيء وستنتهي الوحشة» الخدم كلهم بجلود بيضاء وشعور شقراء ويرطنون معها ، زادت وحشتي ، لا أنيس ولا جليس .

ــ قالت : «تتعلمين؟ !» فصار كل شيء بموعد .

الطبيب ذو الوجه الشاحب يفك أربطتي ويغيّر على الجرح ، ويناقشها بعد كل مرة بجدية وصرامة ، وجهها بلا تعابير فلا أفهم ، أقول لها «إنني أتألم ، دبيب نمل شره يأكل ساقي ، لا ترد . «خيرة» حملت تقول «سلالة نادرة» والغزالة الصغيرة في المربط المجاور ،

يحملونني وأرقبها ، وأحيانًا أقبّل «خيرة» بين عينيها بإشفاق ، ستصير أمًا ، والغزالة بعينين دامعتين دائما تشبه عينيْ زهَوة . «جود مورننج — كومان سافا — تري بيان» .

أرطن أكثر وأفتح عيني على الحروف المعقوفة «أه ايه . . جامبيل فاطم . . . . .» .

والطبيب ذو النظارة المستديرة على عينيه اللتين أثقلهما العجز ، دائمًا يتأفف ويظهر ضجره ، وحين يجيء أبي بعقاله ، وعيناه شديدتا الاحمرار يقبلني بين عيني ويحملني على ساقه ، هل يبكي . .؟ ! ، تغلق باب الغرفة وطشيش الحديث يصلني . أفهم تلك المرة «لا بد وإلا فاحملها معك وسآتي للعزاء بعد بضعة أشهر» .

يخرج أكثر انهزاماً وحيرة ، يتحدثان بصوت عال عن السباق والشحن والتوريد ، تصحبه إلى مربط الخيول ، تقول له وهي خارجة «مهرتك عنيدة . . لكنها لطيفة» . يبتسم وتحط ابتسامته على وجهي بأسى وحزن ويخرج ولا أراه إلا وأنا في الأربطة البيضاء ، أتحسَّس ساقي فلا أجده ، أنظر إليه فأرى الدموع ، الدموع التي لم يخبئها ، صرت العرجاء ولا حيلة لي في دفع اللقب .

أنادي على «زهوة» ولا ترد ، أخبط الأرض بعصاي التي أعكز بها . الأرض المرصوفة بالرخام لا تخرج لي إلا الوحشة والخوف . . . ، اخرجي يا «زهوة» أنا فاطم العرجاء . أحدث العيون المعلقة في صدري وأواصل التعلم . . . «اه جيه اوه» أفهم الآن بعض الكلمات ،

أحاول التفاهم أحيانا ، أجلس في الشرفة الكبيرة التي تطل على بحر النيل وأرى غرسات النخا البعيدة تتطوح فأبكي «يا نخلة بيت ابويا العالي هل طابت عناقيدك» أغني فتصفق كأني في فاصل تمثيلي .

أبكي ، في الليل أرى «طريشة» تطارد «زهوة» وهي تصرخ ، صغيرة ورملية وعمياء يسمع صفيرها الرعيان فينكمشون وتسمعها الصحراء فتبتهل ، تراها تطير في السماء وتحط بعدها ، تطير الأجساد ، كف ، رسغ قدم ساق ، و«زهوة» تجري ، تجري والصفير يتعالى «اهربي يا«زهوة» كي لا يقطعوا ساقك مثل فاطم العرجاء اختبئي . . لا شيء يخبئك في صحراء مكشوفة . . اختبئي يا«زهوة» في البئر . . اهربي» .

استيقظ ، هذا البلل بين ساقي يوقظني . وضعتْ الخادمة له فرشة تحت جذعي ، تحمل رائحتها النفاذة كل يوم وتطلقها أمام عين الشمس .

لا أحب العزف على الآلة التي تشبه تمساح بحيرات النيل ، لا أحب طنينه ، لا تجبرني على تعلمه تقول :

ــ «كما تشائين» .

لكن حين يتكاثر ضيوفها في المساء ويملأون أقداحهم ويثرثرون كانت تلبسني عباءة من التي طرزتها لي موحة بالتلاوين ، وكانت ضفيرتي قد وصلت قريبا من كاحلي ، وأحيانًا تجذب أحدهما عكازي فأصرخ . . تقول :

ــ «شعورك طويلة . . طويلة» .

فأقول لها إن الجنية المسخوطة دقت لي مفتاح الحياة وقالت إن شعوري ستصبح أطول من شعور ست الحسن أم الضفائر، تبتسم بنهم، تحب حكاياتي وتبتهج حين أشرد كأنها تكتشف معي أشياء مبهرة.

يطل علي وجه «صافية» في مناماتي، جميلة وممتلئة ووجهها طافر بالصحة واللامبالاة، و«ريحانة» و«فوز» يتناجيان و«سردوب» تمشط شعري و«ساسا» تصب الماء و«زهوة» لا تفارقني.

أقول «لأن»: إن زهوة لا تفارقني، تسكن تحتي أينما ذهبت وأن في عيني تلك الغزالة الصغيرة روحها السفلية، تقهقه باستمتاع أكثر وأعكز أمام ضيوفها بجديلتي وعباءتي فيلتفون حولي «قولي ها.. ها يا فاطم.. غني يا فاطم» يحملقون في بعيون فضولية مليئة بالدهشة فأغني.

أحط عيني بعيداً عن ضجتهم وأغني.

ـ «يآسين وموح حصرتونا يآسين وموح وسبع جروح وانا منهن خايف على الروح يآسين وجوبا يآسين وغربا اللي زايد في قلبي حبه، فرقاه المولى رايد به اللي ما خَلّف لي غير جروح».

يتأوهون لا يفهمونَ شيئا، تقول: «احكي» فأقول:

ـ «إن اليأس والغربة يحاصراننا وإن الفراق مكتوب، كتبه الله على الأحبة، لكن الأحبة لم يتركوا في قلبي خلفهم إلا الجراح».

يصفقون، تقول «صِرت ماهرة، ماهرة يا فاطم، تتحدثين بطلاقة»

تقول ذلك بإعجاب وتكمل «لم تكن تعرف حتى القراءة ولا الكتابة بلغتها . . ثلاث بلغتها الآن ، تقرأ كثيراً ، برنامج خاص لتعليمها» .

يبتسمون لها باندهاش ويثنون عليها ، تحكي لهم عن دراستها التي تسجل فيها مشاهداتها للحياة البدوية ، تعدد مشاهداتها الخيول ، الصقور . . القنص ، المرأة ، تستطرد في الموضوع ويناقشونها باهتمام زائد فأنسحب داخل ذاتي ، أبحث عن دلو «مسلّم» يدليه فأتشعلق ، أشعر أن وجودي مثل وجود الطيور في قفصها و«خيرة» في مربطها .

ــ «احكي يا فاطم» .

ماذا تحكي لكم فاطم العرجاء؟ ! أتنهد ويبرق وشْمُ ذقني وهم يفتحون أفواههم . .

ــ «الوشمات على الجلود تنحت الحكاية نفسها ، كل الصبايا يرون في المنامات فرسا أو أسدا ، لكنه كان تلك المرة جملاً ، رأته وهي نائمة . عيناه بيارتان وجسده تلة مجدبة ، سنامه خيمة ، وساقاه وتدان انغرسا في أحشاء مربع ، رأته يرعى في شواشي جدائلها . قالت ربما الموت ، لكن عينيه انكفأتا على الوهدات بتبتل قال لها :

«الجمَال بعدما صبرت وأكلت من عشب البوادي ونحل سنامها كرهَتْ الخفَ والخطمة واللجام» ثم جثا على عقلتيه فنهضت من رَقدتها المستسلمة وحينما مدت يدها لتفك مخطمته التي تلثمه لوى رقبته الطويلة وجر عقل ساقيه وأطلق خفيه للفضاء ولم يعد» .

ـ أقطّع الحكي وأفَصله ، أمهل وأعيد .

. . «العبد عبد والفارس جوّال ، لكنه لم يكن عبداً ولا فارسا ، كان يبدو كالقسيس الذي زار كنيسة الجبل القبطية ، يرفع صليبه والأعراب على خيولهم والرعيان يرفعون له الجريد . كان ذلك القسيس في بياضه مليحًا وقوراً على غير عادة القبط وهم يرتدون ملافحهم السوداء ، واندهشت «سقيمة» كثيراً يومها وهي ترى فرسان الأعراب يتناولون يده ويقبلونها ثم يمسحون أيديهم في ثيابهم متبركين ، كان كلما رأته وهي صبية تذكرت هيئة هذا القسيس الذي لم يجىء بعد ذلك أبدا أو ربما جاء ، فقد تبدلت بهم الديار ، كلما عافهم المكان أو عافوه تقلبوا إلى مربع آخر» .

يبتسمون مأخوذين بفصاحتي ، وتواصل تشجيعي «حكاءة . . حكاءة . . ها يا فاطم . . قولي» .

«هذا الوقار وتلك المهابة ، وقعتْ في قلبها من أول وهلة . . وكانوا كأترابهم من معازة العربان لا مال لهم ولا سلاح ، يفردون أكتافهم ليتلقوا خف الفارس ثم يهشّوا على نعاجه ، العبد عبد والفارس جوال . . . لقد عرفت «سقيمة» تلك الحقيقة منذ تفتحت عيناها على العمل الشاق في جمع البعران ، وطحن الحبوب ، وخض اللبن ، وقص صوف القطعان . وغسله وغزله شقوقا ويسطا ، وقبل كل ذلك الهجج في الصحارى بحثًا عن الكلأ ، عرفت يداها خشونة الحياة ولم تكن وحدها في ذلك ، لكن جسدها النحيل

القصير وخفتها ضمنا لها مهارة كل شيء ، لا يدري أحد كيف رآها ، لكنها تدرك أن قدميها القافزتين على أرض المرعى خلف القطعان كانتا تشبهان نقرات أرنب بري يتلوى بين النتوءات والحفر ، كما أن صوتها كان رخيما تتجمع النسوة حولها في خفقات الليل ويسمعن التوصيف ، وتنظر كل واحدة في مزاياها ، وتوصيف وجهها وتسرح بعيدا ترتحل بأهازيجها وتضحك فتبدو أسنانها المقصوفة كالأرانب الجبلية التي اعتادت قضم الأشواك الخشنة ، حينما يجيء تخطو بقنعتها مسفرة عن نصف عين لوزية حادة اللمعان وتمشي أمام مجلسه والنسوة من حول القطعان يضحكن على أمنيتها المستحيلة في أن يقع السيد المهيب في فخاخ تلك البدوية الفقيرة ، مغبرة الثوب ، قليلة الحظ في كل شيء حتى في دهن جسدها ، وهو الذي لا يشابهه أحد في نظافة ثوبه غير هذا القسيس الذي كان يتلحف بالبياض وتتدلى من رقبته الصليبية الفضية .

تَخْجل «سقيمة» كمهرة يعلمونها العدو ، تتمايل كاشفة طرف ثوبها عن «حجلَها» فتبدو عظمة كاحلها وعراقيبها السود مضحكة ، يهشها أحد المشايَخ من أمام العش المنصوب .

ـ «يا بنت لا ترقّصي كيف الثعابين . . دوري على حالك» فيضحكن أكثر وتقفز اتجاههن ناقمة ساخطة على البخت المعقود في قدم طيرة غبراء لم تحط على أرض قط .

ـ «ها . . ها . . قولي يا فاطم»

أبلع لعابي وأتلمّظ بالتذكارات وأعاود الحكاية .

اختارها ذات يوم ، نصب خيمة بالغة الاتساع وجلس ، النسوة يغزلن في الفرش والبسط ، اشترى منهن نعجات وقاعوداً صغيراً ، كأنه خرج لتوه من بطن أمه وبغلة بخرجين تحمل متاعه ، رغم قلة ماله من متاع أو ضأن لم ينزل من نظر أحد قط خصوصًا وقد عرفوا أن فتحة قميصه تتدلى منها ساعة وحافظة من الجلد مملوءة بالورق والعملات الفضية ، وكان أكبر أكابرهم لم يعرف القرش قط ، أو تعامل معه فهم رعيان مالهم في كف الصحراء ، تشرق وتدبر ناثرة كلأها ليسمن ويربو أو معلنة جدبها ليهلك كل شيء ، وبعد أن ألفوا معشره ، وخبروه أكثر ، زادت مهابته في قلوبهم ، فقد كان رغم نحافته قويا يخبط أعتى نخلة من جذعها فتنقعر ، يشقها نصفين ويُخرج جمارها الأبيض إذا حاصرته الصحراء أو نفد جرابه من الماء ، يقول إن النخلات حوريات الأرض المقفرة ، كان يفهم كل شيء ، يسألونه عن القوافل القادمة من بحر النيل ، يحدثهم عن أشهرها وأسماء تجارها وأسواقها . «سقيمة» تشاركهم انبهارهم هذا وكان لطفه معها أوقع في قلبها ، كما أن أثقالها قد خفت من العمل الشاق ، صحيح أنها بلا معين لكنها السيدة زوجة الرجل المهيب ، الذي غرس الشتلات ولقح النخلات حتى صار في نظر كل من مر عليه رجلاً مبروكا أكثر من القسيس ذي الملفحة البيضاء .

انتفخت بطنها فلم يصدق ، كان قد يئس من الولد ، جاءت ابنةٌ. فأحبها أكثر مما أحب «نعش» بناته وخاف عليها وخبأها كما يخبيء الفراعين كنوزهم ، واستعاضت بها «سقيمة» عن فُرقة الأهل الذين

رحلوا عنها وعن الصمت المطلق في بقعة صحرواية خاوية ، كل هلال أو هلالين تمر عليهم قافلة إن مرت ، وهي في ذلك لا تدر من مرورها إلا جلبة العجن والبث والنيران التي تدفعها تحت قدورها لمقدم الزوار ، لم تكن تستمتع بشيء قدر استمتاعها بقوافل الحجاج حين ترقب النسوة من بر مصر ، قمحيات ممتلئات يتلفحن البياض وهن على المحامل ، ينزلن في شقها ويثرثرن كثيراً معها ، تضحك وتنفرج شفتاها عن أسنانها المقصوفة وتحملهن الدعوات وأحيانا يهدينها في عودتهن الأثواب الحجازية أو النبايل الفضية ، وفي الغالب لا ينسينها في البخور الجاوي وزجاجات المسك المكي الصغيرة ، وكانت سعادتها بتلك الأعطيات تفوق الوصف ، تدخرها في صندوقها باحتفاء ، تتحسسها من آن لآخر وتقول «طيب محملي» . «مسلّم» كل يوم تكبر فيه «زهوة» يشيخ ، تبرز تجاعيده ويحاصر قلبه المخاوف . منذ حبت «زهوة» وقد تعلم الشرود والسهر ، يحوم حول شقها ولم يعد يشرق أو يغرب . قال «لسقيمة» «أراها والدم يتدفق من نبض قلبها يتلوى خيطا رفيعا بين ساقيها» . وتنهدت وقالت «يا صاحبي الأقدار مالهم حيلة وحق من عزل بين النهار وليله» . دفن رأسه بين كَفَّيْه وغطى الشيب ساعديه قال «الصحراء جحر ذئب يعوي» زامت الريح بالمواجع ، وقالت «سقيمة» وهي تلف صغيرتها بالخرق والأحجبة والدعوات وتهنهن منصرفة عَمَّن حولها :

— « . . . قمر . . . وجه يضوي كيف قمر .

تبقى تباهي كيف نجيمة

تبرق في الليلة وتمرّ» .

أفتح عينيَّ وأغمضهما . . أبتلع ريقي وسط عيونهم المندهشة .

حتى جاءت تلك الخماسين المغبرة . . تقول إنها جنيات الصحارى رغم أنها لا تخاف الشتاء بسيوله الجارحة وتقول دائماً «السيل له مجرى لكن غبار الصحارى لا بد أن يخطف حبيباً» تتحصن «سقيمة» بالتعاويذ في شق الخيمة وتتحسس جدرانها ولا يخرجون حتى تنتهي الفَوْرة ، وينفلق الغبار عن حرارة الصيف الصاهرة ، تتلوى تحتها الرمال ، لكن تلك الغبرة كان لا بد أن تخطف أحداً ، ولقد فعلت ، ظلت تدور ثم تنكفىء . أخذت «مسلّم» الذي اختفى بلا أثر ولا علامة .

ـ تقول معلقة : «حكاءة . . ذكية» .

تشرح كثيراً . . ، وأعكز إلى غرفتي أتحـ جروحي السبعة . . «زهوة» أين أنت؟ ! . لا تجيب ، أراها فقط فوق تلة تشبه سنام جمل ، تنام مجروحة ، بين ثدييها الدم الطري الذي يتدفق من الجرح ، يتلوى ويتخثر بين فخذيها فأبكي ، والطريشة الرملية العمياء تصفر ، يبترون ساقي والبلل بين ساقي تفوح منه الرائحة النفاذة فأدس فرشتي في عين الشمس وأجفف دموعي .

*

يا النَّضار عليش تتوحَّن يالنَّضار؟! «١٣»

قلت لها : «سقيمة» ماتت ، والعبد ينتف ريش الفرخة العجوز المصلوبة على الوتد ، قلت لها «مُسلَّم» هج قلت لها «زهوة» تولول . . . فردت جدائلها وثمة طائر يغني فيتفصد قلبها بالنزيف .

أشارت بيدها ضَجرَةً وظلت تملأ أوراقها وتسألني فأرفض الإجابة ، سئمت ، اكَتبي . . كتبت عن «موحة» و«ساسا» و«سردوب» . . عن أمي و«صافية» ، عن «دوابة» وتعاويذها ، سئمت . أنا لست ضفدعةً في بلورة تتفرجين عليها . . أنا فاطم يا «آن» لحم ودم . . انظري للعباءات التي ضاقت على جسدي ، انظري للعيون المفتوحة فوق صدري ، إنها قلادة «زهوة» ، سبعة جروح تبكي في الليل وتوقظني . لا تصفقوا لفاطم العرجاء . . أنا لن أغني ، لن أهنهن بالمجاريد ، ولن أرطن بأية لغة ، فقط سأنوح مثل الغربان المشؤومة ، ولن أرى في عيني إلا دموع غزالتك التي كفت عن الطعام .

أبي لا يأتي من يوم أن بتروا ساقي ، وهو لا يأتي ولا يحب أن يراني ، إنني أعكز لكن لا أحد يحملني ، لماذا لا يجيء؟ ألا تكفين يا «آن» عن ملء هذه الأوراق؟ لماذا لا تكفين؟ ! «خيرة» تعبت من كثرة ما أنتجت من صغار . . حصان ألماني على فرس عربي ، مهرة ، قوائم إنجليزية على عمود فقري عربي ، كل عام تنتج بها سلالة جديدة . . .

هل سئمت يا «خيرة» مثلي . الورقة والكتاب ، الحمل والنتاج .

. . . الغزالة الصغيرة ماتت بعدما كفت عن الطعام ، تقول «الغزلان لا روح لها» تربي القطط السمينة البيضاء التي لا أحبها ، أشعر أنها كسول وثقيلة .

أصبح أكثر شحوباً وذهولاً وسور الحديقة يطوقني ، والمكان لا أطيقه ، يضيق ، أشعر أن صدري لا يحتمله ، أبكي بحرقة وأرسل له الرسائل «هل نسيت فاطم؟ !» يحتضنني

«تعالي يا أميرة أبيك صرت عروسا جميلة» .

ـــ أضحك «عروس جميلة عرجاء تعكز بقدم مبتورة» .

يقبلني بين عيني بمحبة :

ـــ «أريد أن أرحل معك»

ـــ يضمني بقوة

«دارك دائماً تنظر مقدمك يا غزالة الغزلان» .

. . تقبلني «آن» بمحبة . . «لا تغيبي» أهز رأسي .

البيت ما زال كما هو ، مزيد من الفُرش قد ملأت البيت وحجراته ، سماوات ابنة «دوابة» كبرت ، سلمت عليّ وقبلت يدي ، ينادون عليها باسم «نومة» أنظر إليها وأبتسم ، «سردوب» لم تستطع القيام من على فرشتها ، ساقاها متورمتان جداً ، تمددهما أمامها باستكانة وقلبها ينبض وينادي علي .

ــ «فاطم . . فاطم . . تعالي» . اقبلها .

ــ «ياه شعرك استطال ، يا فاطم . . استطال جداً» . يقلبون في ضفيراته المطوية التي تجرجرت على الأرض خلفي ، أتطلع فيهن ، رحلت «دوابة» ، هجرها حتى رحلت إلى بيت أبيها على الرغم من أنها في كل سفرة كانت تضع له مولودا تقول «البيت مسكون . . الصبيان لا يعيشون فيه» .

. . بنى لها بيتاً بعيداً في المزرعة فماتوا أيضاً ، أربعة صبية ضاعوا منها . قالت له في النهاية

«خلفتك مشؤومة . . ليس لك في ولد من صلبك حتى لو نكحت كل بنات العربان» .

فطلقها وهجّ من البيت ، ثم جاءت بعدها تلك المرأة النحيلة السوداء «راحات» نحيلة جداً وطويلة ولكنها حانية ، تتحدث بصوت هادىء ساكن ، تقبلني وتقول «بنية وبنت عم» أبتسم لها ، في بسطة البيت وضعوا دواليب خشبية داكنة مطعَّمة بالمرايا ومقاعد جديدة . لم يتغير شيء رغم كل ما تغير ، أدخل غرفتي ، الفراش ، النوافذ

الأرض الخشبية ، البرج ، الصوامع في الركن فقط زاد صندوق الجدة المتكوم بصدفه . أجلس أمامه وأفتحه ، عباءاتها ، أثوابها الزرق المطرزة بالصَّدَف . تقول «راحات» بتنهد :

«والله يرحم موتانا وموتى المسلمين ، كانت مصلية وداعية ، ماتت في البلاد الطاهرة» .

أبتسم ، فتكمل :

ـ «دفنوها في الأرض الطيبة ، الله يرحم الجميع» .

أعكز في البيت أتأمله ، أتأمل «فوز» و«ريحانة» ويتأملانني ، يفتحان ملابسي الحضرية ويضحكان ، يحتضنانني بمحبة ، و«صافية» تتأمل مشيتي وتبكي . كبرت «صافية» ، لكنها ما زالت متوردة ، يعددن لي أسماء صغارهن ، أنسى الأسماء وأشعر على الرغم من كل مظاهر الفرحة بالوحشة بالحزن العميق . . أتوسد فضاء الأرض وأزعق «زهوة» . . لا تجيء ، ما زال جسدها مسفوحاً أمامي على ربوة ما ، وبنات نعش في السماء يضوين ، و«سقيمة» تئنُّ بالداخل ، تكشف «سقيمة» شعورها في صهدة الشمس الحارقة وتجلس مكشوفة الرأس ، تجاعيد حزنها تزداد تحفرا ، تقول إنه يخرج لها ، يفتح بطن الصحراء ويخرج بعمامته المكفوفة ووجهه المترفع الباسم بحنو ، ثم تسقط في الصمت والأنين لا أحد يستطيع كف جنونها حين ربطتها «زهوة» بمعاونة العبد الذي كبر في حاجز الخيمة ، ظلت تصرخ وتنوح فتأكد لهم أنها ستموت مربوطة أو

مطلقة السراح ، كانت كمن يركض إلى حتفه ، وشمس الصحراء الشرسة لا ترحم فرائسها ، ورأس المرأة صار كتلة من النيران المشتعلة تفور بالعرق وعيناها المحمرتان تذرفان الدم القاني والجفون المتفخة تسح بالوجع .

غداً لن تستطيع فعل أي شيء لاكشف رأسها ولا الركض ولا الجلوس في صهدتها للانتظار . كانت «زهوة» تصحن لها العشب وتبلل بمنقوعه شفتيها اليابستين ، لكن لا فائدة ، كان كل شيء يسفر عن نهاياته ، تئن أنينها الموجع ، و«زهوة» تبدل خِرَق ساقيها وهذا الدم القاني تتفصد به مؤخرتها وساقاها ، ووجهها ما زال يذرف حبات العرق الكاوي .

قالت إنها رأته ، تنفتح الوهدة وتنشق ويخرج ذلك القاعود الصغير الذي اشتراه مسلم يوم أن بنى بها ثم اختطفته الخماسين ، تخرج له كل ضحوة ، تجمع في حجرها أعشاب الوهدة ، تخلع لثامه وتفك ثوبها ليدلّي شفتيه لكنه لا يأكل ، يتلحس شواشي ضفائرها بلسانه ويمض كما جاء من بطن الصحراء المليئة بالخبايا ، تجر ساقيها وتحبو إلى الوهدة وقد أقبلت الشمس الفتية لتجهز على فريستها التي حبت وتدحرجت وهي نصف غائبة عن وعيها ولم تكد تزحف إلى فتحة الخباء حتى سقطت . نظرت إلى الوجه المتعب ولم أجد في مقلتي دمعة جديدة . ثم رأيتها تعدو هنا وهناك ، تجمع بعران الخيل ، وتفتل في صوف الضأن وتلهث من وقدة النار إلى شق العنزات .

كانت هناك دائماً تحدث جلبة ، تضحك بسنتها المقصوفة كالأرنب ، تركض مثل معزة برية لا تعرف ساقاها إلا الركض ، خفيفة وحانية وفي عينيها طيبة ونبالة . حملناها كريشة ، دارت الريح حول نفسها بجذعها وزامت فتفجرت الأرض ولم تكن بيارة ولا غرسة . كانت حفرة بحجم جسدها القصير النحيل حيث توسدت الرمال ونامت ، وكان ثمة قاعود صغير يأكل من أشنات جدائلها التي تفحمت في الشمس .

بين يأسين ورجا ، خليت يا عزيز العقل ۔١٣٠

الأيام متشابهة والغربة سد بيني وبينهم ، قلت غرفة الليمون ، كان بها ما زال فراش أمي ، نقلت صندوق الجدة «حاكمة» وضحكت ، كل المواجع يطمسها الزمن ، أنظر له بحياد أو بمحبة ، لا فرق ، قلبي أصبح بحيرة متيبسة على ملح جاف يترقرق من بعيد ، لكن لا موجة ولا حياة . الشقوق تملأ الحوائط التي انفلق طينها ، وخشب السقف والأرض ترعى فيه الفئران الدقيقة . أسمع صوت قرضها في الليل والنهار .

«سردوب» جرّت فرشتها صوت أنفاسها البطيئة يؤنسني ، جاءت «ساسا» تجر خلفها قطيع أطفال يتشاجرون ، سألتها عن «موحة» فضحكت وقالت «الغجر ليس لهم أرض ، خيام ينصبونها ويقوضونها ثم يحملونها فوق ظهورهم ويهجُّون» .

تتحدث باتزان امرأةٍ ممتلئةٍ بالخبرة والحياة ، تتركني أتحسُّس

شعري الطويل وأبحث عن ساق «سردوب» المطوية، أميل عليها وتناوشني الدموع .

يأتي أبي، كفَّ عن الترحال، نَصَبَ خيمته في الفناء المواجه وسكنها، يقول الحجرات المغلقة مسكونة بالأرق ولا يغمض له جفن إلا في الخلاء، يفرشون له الفرش ويكشف رأسه وينام، يسقط الندى فينعس، يجلس جانبي .

ــ «ولمَ لا تسكنين بيت أبيك يا أميرة الأميرات؟» أضحك .

ــ «ولَمَ لا تسكنه أنت؟ !»

ــ «سئمت من الغرف المغلقة» .

يضمني، ينطلق معي كطفل، يحكي لي عن رحلاته . . عن السباع التي قابلته، يسرح، ويعود يتكلم» .

ــ «فاطم يا أميرة أبيك . . انظري بنات نعش . . انظري السماوات» .

لا أرد، فاطم عرجاء وصماء وبكماء، ويتركني لنقيق الضفدع وصفير صرصور، للسكون وطنين البعوض .

«أدفن وجهي في حجري، أدفنه في الورق وأشعر أن الحروف كائنات ليلية تسرح فوق جسدي وترهقه . ماذا تفعل فاطم بالحروف، بالكلام والوحدة مضجرة، و«فوز» و«ريحانة» منشغلتان بالصغار . . هل ما زالتا تطرزان الأثواب بالخرز والألوان؟ ! و«صافية» تأتي ومن خلفها العبد وركوبة بخرجين تنخز بعصاها وتدور في

البيت ، تدخل غرف الكرار والطبيخ والعجين ومن خلفها تسير الخالة «راحات» مستسلمة، تسأل عن الحمام الذي زغب ، والبيض الذي فقس ، والطحين الذي لم يأت أوانه ، تدفس عصاها في كل شقوق البيت وتعطي الأوامر . أضحك «وفوز» تنظر لها بخوف وتقول :

ــ «ارث ودين من والد لمولود . .» فتقهقه .

ــ «يا بنت أنا عمتك . . والقافلة لا يسيِّرها إلا الحداء» .

أتركها تحدو كما تشاء وتشير بعصاها ولا تتلاقى عيوننا إلا وأنا أسير بعكازي وتظهر ساقي المبتورة من تحت الثوب ، أرى في عينيها الأسى . . تتفقد منامي وتشوح بيدها «كيف تنامين في هذا الجحر؟ !» لا أرد ، تصرخ .

ــ «البيت فاضي . . كله على حسك وحس أبيك» أهمهم ببطء لكن بصرامة «لا أطيقه» تهز رأسها وتنظر لراحات باتهام «كيف تنام في جحر فئران فاطم بنت الأجاود؟ !» أحسم صراخها «البيت ضيق والغرف مسكونة بالأرق» ، تصمت لكن في الغد أراهم ، يأتون ينقضون الخشبات ، يملأون الشقوق ، يدهكون بالطين والجير ، أستسلم ، لا فرق عندي ، الحياة موحشة وكئيبة وأنا غراب يحجل في خلاء محض .

أسمع صوت الفلاحات وهن يناولن الطين للعمال .

ــ . . «الفجر لاح يا قلة النوم يانا . . . الفجر لاح» .

فتطبطب سردوب على ظهري وأرمق الوحشة ، يأتي أبي ، يجلس في الشرفة جانبي على البساط ، يبتسم والسماء تنثر نجومها . .

ـ «بيتك جميل يا فاطم ، غداً أغرس لك شجرتين ! هل تكتبين لـ«آن» يا فاطم»، إنها تسأل عليك؟ !» .

ـ لا أرد . . ماذا أكتب لها ، أقول لها إن فاطم ، انشطرت نصفين ، نصفاً يرطن ونصفاً يهنهن بالمجاريد . يقطع صمتي .

ـ «لماذا لا تتكلمين يا فاطم ألا يؤنسك وجودي؟» .

ـ صرت لا يؤنسني شيء ، هل الموت له لون آخر . . يعاود التساؤل .

ـ «مالك يا أميرة الأميرات» يبدو في عينيه الانكسار .

ـ «أنا حزينة يا أبي ووحيدة ويائسة أدور في الخلاء . «زهوة» عشقت طائر الموت فهج «مُسلَّم» وذبلت «سقيمة» وتحولت الحياة إلى ريح غبراء ، وأنا مصلوبة كالفرخة على الوتد» . .

هل أقول له ذلك . . هل يفهمني؟ . . ! استهوتني لعبة الصمت ، ماذا لو كففت عن الكلام !

الليل ، موحش كما هو ، لا أحد في الكون غيرك يا فاطم ، وحيدة والحياة موحشة ، الضجيج يسكن والباب موارب ، كفوا عن غلقه وفتحه وسقطت مغاليقه وحافته تتعثر في التراب فيظل مواربا في الليل والنهار ، أهرب ، أين أهرب؟ ! أعكز فقط وأتلفت حولي ، الخيمة ما زالت منصوبة في الفضاء المواجه وجسده يتدثر بالغطاء ، كوع يده

ــ «فاطم يا حبيبة أبيك ماذا يقلقك ، لماذا لا تنامين؟ !» .

أشرد ببصري في الخلاء ، أشعر بالخوف ، رأسه على ساقي المبتورة يملؤها الشيب ، أحملق فيه أكثر ، الأنفاس الرتيبة تخيفني .

أنهض بين السورين المتقابلين للبيت والمضيفة ، يتلوى الممشى الذي تظلله أعطاف الشجر المنسدلة من سور البيت ، أعكز ، وتهبط العتمة أكثر ، الخليج ، المطوق بحفيف البوص ، الصمت والعواء والجنيات يركضن ويتلوين مع طيات الضباب ويضحكن ويركلن فاطم العرجاء بالحصى . . . «زهوة» أين تسكنين . . يا «زهوة» لو أعرف كيف أعبر لك؟ !» .

أصغي ، تبحث عني «سردوب» أسمع صوتها دائماً ينادي :

ــ «يا فاطم أين تشردين يا بنيتي» أسمعه وأنا أعكز على السلمات ، أهبط ، أجلس والسماء فوقي طاقة ضيقة وصوت كائنات دقيقة تسرح في الشقوق وصفير طريشة عمياء يخرق أذني «فاطم البئر مسكونة يا صغيرة تعالي «لسردوب» . . الآن أجيء لا أحد وصوت الرحى في أذني بفلقتيها المنقوش عليهما رسوم الفراعين ، تحتك ويسيل منها الدم ، دم أمي ، دم «زهوة» ، دم «سقيمة» المتيبس في الشمس .

كُفّي يا «سردوب» عن تعذيبي ، لو لم تكُفّي لخنقتك بيدي ، سأخنقك بملفحتك السوداء ، سأخنقك بذيل المهرة المنتوف .

أصل للقاع ، وتأتي «زهوة» ، أجلس ، يأكل الندى من لحمي فأنحلُّ وأتحسس وجهي .

ـ هل صرت عجوزاً يا فاطم . . «تري بيان» . . . انتهى كل شيء ، لو أكل الدود لسانك هل سيعرف أنك تجيدين الرطن به . فقط لو أعرف من أين يجيء الدود ، أنبش في التراب ، أحفر بكلتا يديّ ولا أراه إلا في قاع البئر المتعفن . . يسرح فوق جثتي .

لا . . لا تجيء لتجلس جانبي ، أنا لن أكلم أحداً ، أذهب لابنتك «سموات» تحدثك ، تمسح لعابك ، وتهش الصغار عن مجلسك .

ـ «يا صغيرة أبيك ما يحزنك يا فاطم . . ؟ !» .

لا لن تفهم شيئا ، أنا فاطم المشؤومة أكرهك ، لو عرفت فقط كيف أكرهك ، لكرهتك ولفصدت كل الدم الفاسد في قلبي ولسكنت بيت «آن» إلى الأبد ، أسير وعقارب رأسي تطاردني ، ألقى عكازي وأزحف ، وصوتها يتعقبني «قومي يا فاطم . . قومي من التراب يا فطوم ، قفي يا حبيبة سردوب» .

ـ لا . لن أقف حتى لو زف بنات «دوابة» حولي وسخرن مني حتى لو جاءت هذه «السماوات» التي يحبها لتسندني لن أقوم . فقط سأحبو في صحراء ساخنة تكوي ساقي التي أجرجرها . «زهوة» أين أنت . . . أرفع الغطاء وأنبش في الرمل ، أدفن الخرق المبللة بالدم أتطلع في الفضاء ، لا شيء إلا الخلاء والسكون وهنهنة حزينة تطلقها الريح التي تدير جذعها في الرمال .

ـ قلت «الزهوة» . . تعالي نهرب ، الأرض المكشوفة حارقة والرمال التي تتحرك ستطمر كل شيء ، الذهول وحده هو الذي يفتح

عينيها الكحيلتين على نقطة في الأفق البعيد ، ربما يبرك جمل «مُسلَّم» على باب الخباء ، قد يفرد عباءته ويضمها ، ومن مسبحته التي تمصمص في حباتها كحلمة حانية سيتفتق الضوء بين يديه ، وقد تحبو «سقيمة» وتقفز كأرنبة بريَّة وتضمَّخ ساقيها بكل الطيب الذي ادخرته في الصندوق وتغني لَها :

خدها من سلسال أمارة

حرة ما ترضاش دميمة

تفتن من صلى الفجارة

وإلها مشية في الضنضيمة

تشبه وصفة ريم القارة

تفرز في الحجات فهيمة *(١٥)

وتضفر لها جديلتيها وتطوي ساقيها على رأسها بحنوّ وتقبلها في جبهتها لتنعس ، تنتظر أن يعود ذلك الطائر خالص البياض ، ذلك الذي رآه «مسلَّم» في كل مناماته ، من يوم أن تعلمت الحبو يحلق فوق الفرخة المعقوفة كل خريف وينقر الأرض نقرتين فينبثق ينبوع الدم ولا يجف ، يفرد الشرك ، يضع الفخاخ يشرد ويشحذ نباله وينتظر أن تحتضنه الأرض أو تطوحه السماء .

وظلت «زهوة» تنتظر أيضاً . فقط لم تعد تتلحس قدميه ، لم تعد حبات مسبحته تضيء لها الحياة ، قالت له وقد أتعبته الفخاخ ، ولم يسقط بعدها طائرها :

ــ «السماء ليست بعيدة لمن له جناحان» .

فضمها تلك المرة ، وأحس بحمامتيْ صدرها ترتعشان وتخفقان بوجد ، قَبَّلها في جبهتها وكان القمر سارحًا ، ولم تره بعدها ، رغم أن «أبا شريك» قال بعد ذلك أن «ظاظا» زوجته التركية تستحق القتل وأنه عاد ليشطر جسدها ويلقي به لكلاب الأرض ، فهي لم تكتف بالتفاخر عليه بل تَنَدَّرت على رجولته ، وأنه هَجَّ من لسانها الفاحش .

وأن تلك المرأة النحيلة المليئة بالوشمات أصيلة جداً وعفيفة النفس ، وقد أحبته وأحبت موضوع نعله على الصحراء وأنها لم تستطع أن تعيش بعده ، أسلمت نفسها للهب الشمس حتى تفجرت عروق دمها وتيبست ، قال «أبو شريك» كلاماً كثيراً لقوافل الحجاج التي كانت تمر على البئر فلا تجد إلا خيمةً مهترئَة بها امرأة تئنُّ .

هل بت الريح تندار ويجي الغيث بعد القبالي..«١٦»

«لماذا لا تفتحين نوافذك؟ !»

تسألني عيناها الجميلتان ببراءة فأبتسم ، مر زمن طويل لم يعرفوا عن وجهي إلا التجهم والشرود . تتشجع أكثر وتقترب .

ــ «ولما لا تخرجين؟ !» لو عرفت كيف أضحك لضحكت .

تأملت وجهها أكثر . . هل تشبهين أمي حقًا يا سماوات أو يا بنت يا تومة يا صغيرة ولماذا لا أشبهها أنا؟ ! ، لا ، أنا صرت أشبهها تمامًا ، أنا الآن أدخل صومعة نشيجها وصمتها ، وعينيها المتورمتين . هل لهذا تخاف الصغيرات مني حين يلتففن حول ساق «سردوب» بخجل فتحكي لهن عن الجمال والجنيات والملوك ، هل لهذا كفَّ أبي عن المجيء .

تقترب من شعري أكثر :

ــ «شعرك جميل يا فاطم ، لماذا لا تَفُكِّين جدائلك؟ !» لا أدري لماذا لا أفكها ، صرت لا أقدر على ذلك . طال أكثر من اللازم ، أكثر

من قدرتي احتماله ، صار مثل جذع يحني رقبتي للوراء ولا أعرف كيف أنتزع رأسي من سطوته .

ــ أعكز معها ، الباب موارب ، التراب المتراكم يحجزه فلم يعد يفتح أو يغلق . يجرّر أحد الخدم الركائب ويحملهن .

ــ «يا سماوات راعي خواتك يا بنية»

الصغيرتان كبرتا ، يجران الأوراق ويمتطيان الدواب ويسرح بهما الغفر للمدرسة البعيدة خلف التلات ، تنظر لهما «راحات» بعينيها المتأملتين وتكمل :

ــ «آه يا فاطم لو جدتك «حاكمة» رأت ذلك ، كانت سفحت دمهما على البوابة . . الزمن رياحه عاتية» .

أتنهد ، تسمع زفرتي وأعكز باتجاه الباب ، أقترب من حافته الموارية ، أراه ، المَضْيَفة الخشبية سوداء كالحة من الدخان ، والتراب ، والخيمة والبسط أيضاً ركلهم الزمن بغباره . وهو كاع ، يمرون عليه ويلقون السلام فيتنهد ، يفرك أصابعه وينادي عليهاً ، «سماوات يا أميرة أبيك . .» أبكي الآن بشره وأتشرب دموعي ، هل انتهت فاطم تماماً ، حتى عيناك لم تعودا تريانني ، لماذا تهجر محبوبتك؟ ! ، أشرد في البئر وعلى السلمة أنتحب حتى يسقط الليل وصوت «سردوب» من ورائي ينادي :

ــ «يا فاطم . . فاطمة يا حبيبة «سردوب» . . البئر مسكونة يا صغيرتي» ، «فاطم الليل غادر يا فطوم . . تعالي يا حبة عيني تعالي» .

لا أرد ، فاطم ليست إلا حبيبة وحدتها وضجرها ولياليها الحزينة ، أدرك أن قدميها عاجزتان وأن صوتها الرخيم لن يتوقف عن النداء فأعبر درجات البئر وأزيز الرحى الملعونة لا يتوقف ، يختلط بالصفير اللانهائي لتلك الطريشة العمياء التي تطاردني فتظل عيناي مفتوحتين ، حتى في حجرتها وهي تُمَسِّد شعري أسمعه وهو ينادي عليها «سماوات . . . يا سماوات» . . نومة يا نومة ، تروح وتجيء بين الباب الموارب ومجلسه .

يتوسد حجرها ويحكي لها عن «نعش» وعن «دوابة» التي جلبت له الرمالين ليدفعوا الشؤم عن الأرض المسكونة باللعنة ، لا ولد ولا وليد ، وعن القرومي الأحمر الذي لا يشبه الأتراك ولا الفلاحين ، ذلك الذي قابله في سفرته وقال له إنه متبوع باللعنة حيث حَلّ ، وأنه في الليالي المقمرة صار يجالسه ، يحدثه عن المكتوب وعن السماء التي تكتب بالريح على الكثبان نهايات الرحلة ، يفرد له التراب الطاهر وينفخ بعينين مغمضتين ويقرأ ، تل ، هضبة ، بسطة ، خير ، شر ، عتمة تفتح أخدوداً لفرج قريب . ها هو يعكز على كتفها يمشي وتسنده فيطبطب على ظهرها ويهتف .

ـ «ما سند عودك مثل عظمك» .

ثم صار كهلاً حقًا مثلما قالت «راحات» يروح ويجيء ما بين خيمته وسكنانا وحين يقابل وجهي وأنا أحبو بعد أن رميت العكاز تهرب عيناه .

وتسند ظهرها كي لا تتعثر خطوته ، فتجفف له لعابه بطرف ثوبها وتنظف حواف عينيه من بقاياها وتلقمه بيدها كسر الخبز المفتوتة في الحليب ، وهو ينحل وأنا أحبو ، أقضي النهار بين درجاته ، والليل أتوسد ساق «سردوب» وأزيز الرحى وصفير الطريشة العمياء يحاصرني . أزحف بين الروابي الضئيلة المتناثرة في بسطة الصحراء ، تحط الحباري البيض وتطير ، تحط مثل ياسمينة تفترش زهورها وتطير ثم تسقط صريعة تعبها . أزحف أكثر ، لا أحد سوى هنهنة بعيدة لا أعرف لها مصدراً ولا أثراً ، لا جان ولا إنس ، بئر معطلة يمر عليها «أبو شريك» كل عام متشحًا بالبياض ، يسند رأسه على وتد عار كان فيما مضى خباء امرأة تئن ، ويقول إنه «كان جملاً ، في الحقيقة الملك لم ينجب ولداً ولا بنية ، بل كان جملاً صغيراً ، كبر وتزوج من امرأة أحبته وهو يسرح على أشنات جدائلها ، وأنه ربما لما اختلت به صار أميراً وجيهًا لا يشبه إلا القسيس ذا اللفحة البيضاء في وجاهته وأنها أنجبت منه ابنة لم تعرف الصحراء أجمل منها» .

يقول «أبو شريك» ذلك ثم يكفي وعاء القهوة على الرماد المطفأ ويسير الحجاج وراءه فلا يخافون إذا جاءت أرنبة برية وقفزت بين مسالك الطريق الوعر وظلت تركض بعينين لامعتين ، وكشفت أسنانها المقروضة عن وجه امرأة يرعى من جدائلها قاعود صغير .

وربما لم تعجب البعض تلك الرواية فإذا حج في العام القادم فإنه سيسمع من «أبي شريك» قصة المرأة التركية «ظاظا» وما حدث له

معها أو حكاية ابنته التي كان يخاف عليها إذا رمشت وإذا سهمت ، وكيف كان يحفر لها بين كل وهده ووهدة قبراً وأنه كلما هَمّ أن يفعل تفتق البئر عن الماء الطاهر وأن ذلك كان نبوءة من السماء بمحياها ، لكن العذراء في السماء كانت تحمل وليداً صغيراً وتمشي في الفجاج ، والماء الطاهر صار دمًا متخثراً يسيل من بين فخذيها ، يكمل «أبو شريك» عنه من بقايا الحكاية ويقسم أن جلبتهم حرام وأن القبر وحده هو ستار الصبايا .

أزحف والصغيرات يجذبن خيوط شعري وقد يتهامسن في أركان البيت «الممسوسة تَخَمَّرت في البئر . نادى عليها يا سردوب» .

ــ «يا فاطم تعالي لسردوب حبيبتك» لا.لن أجيء .

«أبو شريك» يعبر وقد يقول إن «زهوة» خطفها طائر البعاد ، وأن الحجاج كانوا يقابلون عجوزا تشبه أرنبة برية ، وقاعوداً صغيراً يعدو ونعجة يتبعها وليدها الصغير ، تنزف دمًا وأن الحجاج ألفوا ذلك ، لا تطبطبي على ظهري ، لا تلمسيني يا «سردوب».إني أكرهك وأكره «سماوات» و«راحات» ، أكره كل شيء ، لماذا تجذبونني من شعري بالليل لماذا تشدون خصلاته على الأوتاد الصغيرة ، لماذا تعلقونني من جدائلي . أنا لا أطيق صوت الرحى الملعونة ولا صوتها حين يقول . . «لماذا لا تفتحين باب غرفتك يا فاطم؟ !» «لماذا لا تسندين على عكازك»؟ ! العكاز لا يستر العرج ، العكاز يقصم الظهر . . . هل تفهمين يا سماوات هيا ، هيا اخرجي وإلا ركلتك بكل شيء اخرجي

أذهبي إلى ظهره المحني ، اسنديه إن شئت . فاطم العرجاء لا تريد أحداً .

«فاطم يا حبيبة سردوب ما يحزنك يا فطوم . . ماذا أصابك» .

اصمتي يا سردوب لا أريد أن أسمع صوتك أسمعهن بالخارج يسخرن من فاطم ، التالفات بنات «دوابة» يسخرن من عجزي ويقولون ممسوسة أنت يا «سردوب» تعرفين «زهوة» التي تسكن واحة «مسلم» لا تطبطبي على ظهري لماذا تنكرين؟ ! .

ــ «نامي يا فاطم . . نامي يا أميرة الأميرات» لا لن أنام . . أعرف أنك تودين أن تنسجي منه خباء وأن تظل فاطم في الظلام ، لن أسلم لك ضفيرتي أبدا ، أنت لا تريدين إلا موتي ، سأموت يا «سردوب» فقط أبعدي يديك عن شعري . هذا الصفير الأسود يحاصرني ، عمياء رميلة يسمع صفيرها الرعيان فينكمشون وتسمعها الصحراء فتبتهج تراها تطير في السماء وتحط تعالي تعالي . .

هل أنت خائفة ، لا لن أقتلك ، فقط أقفزي وبين عيني أدفقُ سُمَّكِ .

هوامش

١ – وين : أين – خفير : خفير – غاليين : الذين نحبهم ، والمعنى : وضعتك ايها الحجر على بيت الأحبة فاين تركتهم يذهبون .

٢ – بو : صاحب ، رشرشها : رسمها بالتنقيط على اللحم ، دهشه :دهش من جمالها ، شافها : رآها .

٣ – البكرج : إناء لصنع القهوة ، الحلّيه : أهل البيت ، النجمة البدرية : نجمة الصباح .

٤ – الدملج : نوع من الأساور التي تتحلى بها المرأة ، الجمة : الشعر فوق الجبهة .

٥ – اديبل : ذبل ، روف : ترأف ، والمعنى أنه يبيت طوال الليل حائر البال ، وأفكاره في جهات مختلفة . . والعقل ذبل فترأف به

٦ – البوشان : نوع من أغاني الغزل

٧ – الزول : الهيئة – خزرة : حبة العين – بوكمبيل : الصقر المكمم ، والكمبيل : الكمامة ، وهو يشبه البنت وهي منتقبة تظهر عيناها كأنها عينا صقر كمموا فمه ، إشارة إلى الجمال عينها التي تشابه عين الصقر .

٨ – الشبرية : هودج تحمل فيه العروس فوق الجمل .

٩ – رقيبته : تصغير رقبة ، والمعنى أن الفتاة لوزغردت للشاب الذي يغني في العرس فهذا يعني إعجابها به .

١٠ – ان قلتم : اليوم الذي تقولوُن فيه – حافيّة : دون حذاء . والمعنى اننا نفرح لفرحكم حتى إذا دعوتمونا جئنا حفاة من اللهفة فحيونا بالقهوة حتى يطلع الصبح علينا في فرحكم .

١١ – اليأس : اليأس ، والموح : البعاد والفرقة .

١٢ – يأسين وفراق للأحبة اراهم واخشى على روحي منهم .

١٣ – لنْضار : أي النظر أو العينين – تنوحن : ينحن من النواح .

١٤ – يَأسين : مثنى يأس ، والرجا : هو الرجاء

١٥ – سلسال أمارة : أي من أصل فيه الإمارة والنسب – دميمة : عمل شائن – الفجارة : الفجر – ولها في المشى طريقه تشابه بها وصف ريم الصحراء – تفرز في الحجات أي تتكلّم بالحجة وتفهم ما يحيط بها .

١٦ – هل بت : لابد ، تندار : تغير اتجاهها – الغيت : المطر – القبالي : الريح القبلية الجافة . والمعنى أنه لا بد أن تتغير الأشياء .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٩٨٩ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7577 - 3